الدّعوة الإصلاحيّة

تأليف الشيخ

محمد بن علوي المالكي

مكتبة الغزالي
دمشق - ص.ب ٤٤٨

مؤسسة مناهل العرفان
بيروت - ص.ب ١٤/٥٩٣١





مقدمـــة

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد طلب الإخوان الكرام بارك الله فيهم وحفظهم أن أجمع الأحاديث التي كنت كتبتها وأذعتها في إذاعة المملكة العربية السعودية من البرنامج العام أو من إذاعة القرآن بمكة المكرمة إذاعة نداء الإسلام ، فاستخرت الله تعالى ثم انشرح صدري لذلك .

وهي مواضيع مختلفة في العقيدة والأخلاق والمعاملات - جهد عشر سنوات - سميتها الدعوة الإصلاحية . نسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن يرحم صاحب الفكرة الأولى الذي كان يلقي حديث الجمعة صباح كل جمعة من الإذاعة السعودية مدة ثلاثين سنة تقريبا ، ألا وهو سيدي الوالد الإمام الداعي إلى الله السيد علوي بن عباس المالكي المتوفي سنة ١٣٩١ . وقد كنت جمعت أحاديثه الإذاعية من الأوراق والأشرطة

المسجلة ، ونشرتها في كتاب باسم « نفحات الإسلام » طبعه تلميذه العلامة الشيخ عبد الله الأنصاري ضمن مطبوعات مؤتمر السيرة النبوية المنعقد في قطر فاتحة ١٤٠٠ .

وفق الله العاملين لما يحبه ويرضاه آمين .

وكتب محمد بن علوي المالكي
مكة المكرمة ربيع أول سنة ١٤٠١

مجد الإسلام والجهاد

إن تكوين هذه الدعوة الإسلامية الصادقة وبناء مجدها العالي الرفيع لم يتم اتفاقاً أو بالصدفة،وإنما قام على العزائم والهمم وانبنى على الرؤوس والنفوس ، لذلك فإن مجد الإسلام له اتصال وثيق وارتباط عظيم بالجهاد ، فلا يذكر هذا المجد إلا ويذكر معه الجهاد والقتال ، وليس مجرد القتال وإنما القتال للدفاع عن العقيدة والذب عن الشريعة وحماية أوطان الشريعة وحياضها وصيانة مقوماتها وطاقتها وقدراتها ، فهو قتال لمبدأ لا لهوى ولا لتأثر ولا لمغنم وهو قتال لله لا للنفس ومصالحها فلا عدوان فيه ولا مثلة ولا ظلم ، فالقتال للثأر محدود المطلب محصور الثمرة فضلاً عن أنه لا يحرك إلا المنتفعين به ولا يمكن أن يحفظ للأمة جمعها ووحدتها والقتال للمغنم قتال فوضوي لا انسجام فيه بين المقاتلين ولا تعاون ولا ارتباط . فالمقاتل الذي لا يجد في قتاله ما يفيده يصعب أن يكون مطيعاً وباذلاً بل سرعان ما يولي الأدبار ويفرّ من الميدان عندما يجد حياته على خطر الزوال فهو إذا كان على المال والمغنم والذكر

حريصاً فإنه على نفسه أحرص .

وإذا خلا القتال عن هذه المعاني السامية ، فإن الأمة تعاني من خذلان الأعوان والزملاء المسؤولين ما ليس في مصلحتها ، اتباعاً لهوى وجرياً وراء المصلحة الذاتية وقد ورد في الجهاد من الآيات والأخبار ما يطول ذكره ويتعذر حصره . قال الله تعالى[1] : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال تعالى[2] ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَة وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه ﴾ . وقال الله تعالى[3] : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقال ﷺ (إن في الجنة مائة درجة . أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) رواه البخاري .

وقال (مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة) رواه الحاكم .

---

(١) سورة البقرة الآية « ٢١٦ » .

(٢) سورة البقرة الآية « ١٩٣ » .

(٣) سورة التوبة الآية « ١١١ » .

وقال ﷺ (رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزته) رواه مسلم .

وإن خرجَة واحدة في سبيل الله في صباح أو مساء لها من الفضل عند الله بحيث لو نظر صاحبها معها إلى الدنيا وما فيها من متاع ومال وجاه لكانت عنده شيئاً لا يستحق الذكر ولا الحرص عليه فقد روى مسلم بسنده مرفوعا : لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها .

وللنفقة في سبيل الله وإعانة الغزاة فضل وثواب عظيم قال ﷺ (من جهّز غازيا أو خلفه في أهله بخير فقد غزا) .

وبعد : فإن الجهاد طريق مزروع بالأشواك كثير العقبات متنوع الصعوبات محفوف بالمكاره والشدائد ولكنه أيضاً طريق الفضيلة والشرف والكرامة والجنة والنعيم المقيم والتكريم .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١)

(١)﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

أمر الله عباده المؤمنين بأن تكون منهم طائفة يقومون بالدعوة فيدعون الناس إلى كل ما فيه صلاحهم في الدين والدنيا ويأمرون الناس بما استحسنه الشرع وأمر به من واجب ومندوب يُقرّبهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار . ومما استقبحه الشرع ونهى عنه من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم عن الجنة وهؤلاء الداعون للخير الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة . وهذه الآية دليل على ذلك لأن قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ أمر وظاهره الايجاب ولكنه فرض كفاية لا فرض عين ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ويدل لذلك قوله

(١) سورة آل عمران الآية « ١٠٤ » .

تعالىٰ ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾ ولم يقل كونوا آمرين بالمعروف . قال الغزالي رحمه الله تعالىٰ : أما بعد فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون إنا لله و ا إليه راجعون .

وقد وصف الله المؤمنين والمؤمنات بصفات خمس : (1)﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لما بينهم من الأخوّة والمودة والتعاون والتراحم ﴿ يَأْمرونَ بالمَعْرُوفِ ﴾ المعروف كل ما عرف في الشرع وهو كل خير ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ المنكر كل ما خالف الشرع ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ يؤدونها على وم وجه وأكمله ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ يعطون الزكاة المفروضة عليهم ﴿ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر الأوامر والنواهي ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ يعدهم برحمته في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه عن إنجاز وعده ووعيده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا ع شيئاً إلا في محله .

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : من الواجب على كل مسلم إذا رأى أمراً مخالفاً للدين أن يمنعه بيده ، لك كأن

---

(1) سورة التوبة الآية « ٧١ » .

يمنع القاتل من القتل ، فإن لم يتمكن من ذلك منعه بلسانه كأن ينهي الساري عن السرقة ، فإن لم يتمكن من ذلك كَره الأمر بالمنكر بقلبه وهو أقل ما يجب على المسلم أن يفعله . روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من رأى) أي شاهد أو علم إذ لا يشترط في وجوب الإنكار رؤية البصر فحسب بل المدار على العلم (منكم) معشر المسلمين المكلّفين القادرين (منكراً) أي شيئاً قبحه الشرع فعلاً أو قولاً ولو صغيرة (فليغيره) أي فليزله وجوباً شرعياً (بيده) حيث كان مما يزال بها (فإن لم يستطع) الإنكار بيده بأن ظنّ أن يلحقه ضرر لكون فاعله أقوى منه (فـ) الواجب تغييره (بلسانه) أي بالقول كالاستغاثة أو التوبيخ أو التذكير بالله (فإن لم يستطع) ذلك بلسانه لوجود مانع كخوف فتنة أو على نفس (فبقلبه) ينكره وجوباً بأن يكرهه به ويعزم أنه لو قدر بقول أو فعل فعَل (وذلك) أي الإنكار بالقلب (أضعف الايمان) .

وإن من الناس من يجلس على قارعة الطريق فيتكلم ويسمع ويرى ولا يلقي بذلك بالاً مع أنّ جلوسه ذلك يسأل عنه يوم القيامه لِمَ جلس ؟ فعلى المرء أن يجتنب القعود على قارعة الطريق إلا إذا كان لضرورة تدعوه إلى ذلك على أن يقوم بحق الطريق . روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إيّاكم والجلوس على الطرقات) ، لأن الجالس بها لا يعلم غالباً من رؤية ما يكره وسماع ما لا يحل إلى غير ذلك (فقالوا ما لنا بُدٌّ) أي غنىً عنها (إنما هي) أي الطرقات (مجالسنا نتحدث فيها) قال عليه

الصلاة والسلام (فإذا أبيتم إلا المجالس) أي إن أبيتم إلا الجلوس (فأعطوا الطريقه حقه) قالوا وما حق الطريق ؟ قال عليه الصلاة والسلام : (غض البصر) أي عن الحرام (وكف الأذى) عن الناس فلا تحتقرنهم ولا تغتابنهم (وردّ السلام) على من سلم من المارة

آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداباً ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مراعاتها منها : أن يقطع الطمع من الخلق حتى يتمكن من القيام بما يريده لأن من أراد أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم عليه بالثناء مطلقة ويتشوف ما في أيديهم يصعب عليه أن يأمرهم وينهاهم ، سأل رجل بصرياً قال له : من سيدكم ؟ قال : الحسن ، قال : بم سادكم ؟ قال : احتاج الناس إلى علمه واستغنى عما في أيديهم .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(٢)

(١)﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : مما أوصى به لقمان الحكيم ولده قوله : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أي بشروطها وأركانها وآدابها لكونها عماد الدين ومناجاة رب العالمين . ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بكل ما عرف شرعاً لأن الدال على الخير كفاعله . ﴿ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وانه الناس عن معاصي الله ومحارمه . ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ من أذى الناس في ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي أمرتك به ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ من الأمور التي جعلها الله حتماً على عباده لا محيص ولا مفر منه .

وإن من أقبح ما يأتي به الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ، أن يأمر بالشيء ولا يفعله وينهى عن الأمر ولا يجتنبه ، كان أحبار اليهود يأمرون غيرهم بالثبات على الدين الإسلامي ويقولون لهم إنه حق وهم باقون على دينهم قال تعالى لهم(٢) : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ بالإيمان بمحمد ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي تتركونها فلا تأمرونها به ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول العمل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تفطنون لقبح فعلكم حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه . وورد في حديث متفق عليه عن أسامه بن زيد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق) تخرج (أقتاب)

(١) سورة لقمان الآية « ١٧ » .
(٢) سورة البقرة الآية « ٤٤ » .

أمعاء (بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهي عن المنكر وآتيه) . وقد أمر الله تعالى الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلها بذلك خير أمة ظهرت للناس قال تعالى[1]: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ باللَّهِ ﴾ .

وقد لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان نبيِّيَنِ كريمين سيدنا داود وسيدنا عيسى عليهما السلام وذلك لتماديهم في العصيانِ وتمردهم على ما أمروا به من طاعة الله وعبادته والسبب فيما كانوا عليه من العصيان والتمرد وعدم نهي بعضهم بعضاً عن المنكر قال تعالى[2] : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى بنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ . قال تعالى تقبيحاً لسوء فعلهم : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وإذا تركت الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عاقبها الله بشيئين : عدم استجابة الدعاء وعموم العذاب ، روى الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف) شرعاً (ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) .

---

(١) سورة آل عمران الآية « ١١٠ » .

(٢) سورة المائدة الآية « ٧٨ - ٧٩ » .

ومن الآيات الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] .

قال الطبري بعد أن ذكروا أقوالاً عديدة في تأويل هذه الآية :

وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها وهو : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الزموا العمل بطاعة الله وبما أمركم به وانتهوا عما نهاكم الله عنه ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم ﴾ يقول : فإنه لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم رمتم العمل بطاعة الله ، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به من فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه والأخذ على يديه إذا رام ظلم مسلم أو معاهد ومنعه منه فأبى النزوع عن ذلك ولا ضرر عليكم في تماديه في غيّة وضلاله إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله فيه ﴿إِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُكُم جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . فإن إليّ مرجعكم جميعاً ومصيركم في الآخرة ومصيرهم وأنا العامل بما يعمل جميعكم من خير وشر فأخبر هناك كل فريق منهم بما كان يعمله في الدنيا ثم أجازيه على عمله الذي قدم به عليّ جزاء حسب استحقاقه فإنه لا يخفى علي عمل عامل منكم من ذكر وأنثى .

أما الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف فهو عمل لا يصدر إلا من أحد رجلين : إما رجل جاهل بالدين وتعاليمه ، وهذا أي الجهل

---

(١) سورة المائدة الآية « ١٠٥ » .

عذر غير مقبول عند الله ، لوجود كتاب الله وسنة رسول الله ، وأهل الذكر [1]﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وإما رجل غلبت عليه شهواته فلم يكترث بما جاء عن الله ولا بما أتى عن رسول الله وقد وصف الله تعالى الآمرين بالمنكر والناهين عن المعروف بقوله : [2] ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ، متشابهون في عملهم الذي هو النفاق فهم على أمر واحد مجتمعون عليه ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ كالإيمان والطاعات ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الإنفاق في وجوه الخير ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ تركوا طاعته ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ تركهم من لطفه ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الكاملون في الفسق .

---

(١) سورة النحل الآية « ٤٣ »

(٢) سورة التوبة الآية « ٦٧ » .

من مقومات المجتمع الإسلامي
التضحية والجهاد

التضحية من أعظم مقومات المجتمع الإسلامي ودعائمه التي كتبت له الرقي والتقدم والعزة وساد العالمين بجهاده في سبيل الله لنفس والمال واستهانته بالحياة فدانت للمسلمين أفراد ذلك المجتمع الدنيا ، وكانت لهم العزة والسيادة وكانوا هم الحاكمين وفي سبيل ذلك نرى أن الإسلام يعتني بشبابه وأبنائه عناية خاصة لمقاومة روح الخنوع والاستسلام التي سيطرت على المسلمين في السنوات الأخيرة كنتيجة لانغماسهم في الشهوات ، وتعلقهم بالدنيا ، وحرصهم على الحياة ، ففقدوا بذلك حريتهم وأضاعوا بلادهم وغدوْا عبيداً مستضعفين ، وصدق رب العالمين إذ يقول[1] :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

ذلك لأن حياة الأمم وعزتها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدار ما في نفوس أبنائها من استعداد للتضحية والبذل أو من تعلق بالدنيا وحرص على الحياة ومن هنا كان الصدّيق رضي الله عنه يقول للبطل

(١) سورة الرعد الآية « ١١ » .

الإسلامي خالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ولقد أخذ خالد بهذه الوصية فكان دائماً في مقدمة جيوشه وخاض المعارك العنيفة ببسالة وإيمان فلما حضرته الوفاة وهو في الثانية والثلاثين من عمره قال لمن حوله : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وليس في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء .

فكان الفرد المسلم في ذلك المجتمع على أتم استعداد لتلبية كل حاجات الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال .

قال الله تعالى[1] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون﴾ .

إعتنى الإسلام عناية كبرى بغرس روح الإقدام في نفوس أتباعه وتنمية معاني السخاء والتضحية في أعماقهم فبيّن لهم أموراً هي الباعث القوي على بذل النفس والنفيس في سبيل الله .

أولا ـ إن الأرزاق مكفولة وأن الأعمار مكتوبة ، فلن يحرم المؤمن بإقدامه درهماً من رزقه ولن ينقص الله يوماً من عمره فما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها[2] : ﴿ وَما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاّ بِإِذْنِ اللّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً ﴾ .

(١) سورة الصف الآية « ١١ » .
(٢) سورة ال عمران الآية « ١٤٥ » .

ثانياً ـ إن الجهاد في سبيل الله عز وجل هو أعظم القربات إلى الله تعالى لا يعدله في الثواب عمل آخر لما له من أثر في إعلاء كلمة الله وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله فأجابه ﷺ لا أجد ، ثم قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد في سبيل الله أن تدخل مسجدك فتصلي ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ قال لا أستطيع .

ـ متفق عليه واللفظ للبخاري ـ

ويؤكد سيد المرسلين ﷺ هذا المعنى فيقول : (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) ـ متفق عليه ـ

ثالثاً ـ إن الخوف من الموت والبخل بالمال دليل على ضعف الإيمان والشك في وعد الله والزهد في لقائه ، وهذا شأن اليهود والمنافقين . قال تعالى(١) : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

وقال في وصف المنافقين(٢) : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّهُ أَعْمَالَهُم وَكَانَ ذَلِكَ عَلى اللّهِ يَسِيراً ﴾ .

رابعاً ـ إن فائدة الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال عائدة على المجاهدين والمنفقين فهم في الدنيا يعيشون موفوري الكرامة مرفوعي الرأس . أوطانهم في عزة ، وأعراضهم في حماية ،

---

(١) سورة البقرة الآية « ٩٦ » .
(٢) سورة الأحزاب الآية « ١٩ » .

وأموالهم في أمن . بعكس الأشحة الجبناء فإنهم يعيشون في ذلة ومهانة وهم من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف الموت في موت يسيطر عليهم الأعداء فلا يملكون لأعراضهم حماية ولا لأموالهم صيانة ولا لدمائهم حقنا إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . قال تعالى[1] : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

خامساً ـ إن ذمّة المسلمين واحدة فهم كالجسد الواحد . عليهم أن يتناصروا وأن يتعاونوا فما يقع من عدوان على فريق منهم يعتبر عدوانا على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . يفرض عليهم ذلك فرض عين فيدفعوه ولو أدى ذلك إلى بذل آخر قطرة من دمائهم . ولقد استقر ذلكم المعنى الرائع في أعماق السلف العظيم وظهرت ثماره واضحة جليّة في تاريخه وسيرته كل هذه المعاني وغيرها هو ما يعتني به الإسلام ويحرص على غرسه في نفوس النشء عامة ليكونوا دائماً على قدم الاستعداد لتلبية حاجة الدعوة ، ولتتحد اتجاهاتهم وأهدافهم وتثبت أقدامهم أسوة بما يرون من كفاح إخوانهم في الله وما يلمسونه من استبسالهم في الدعوة إلى لحق ومثابرتهم في المقاومة ضد الباطل .

نسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام والمسلمين وأن يرفع راية الجهاد ويؤيد المجاهدين وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة العنكبوت الآية « ٦ » .

الدعوة الصادقة

فإن الناظر في السيرة النبوية وتاريخها وأدوارها وأحوال رجالها وأبطالها وأخبارهم ومواقفهم ومناهجهم في بث رسالة الإسلام وتثبيت جذوره في القلوب وإقتلاع ما يخالفه من النفوس والدعوة إليه يرى بوضوح صدق تلك الدعوة ، وأنها دعوة صادقة صريحة بينة .

وعنوان صدق هذه الدعوة يظهر في إعلان الدعوة إلى الناس كاملة دون نقصان وتقديمها صريحة لا عوج فيها أو التواء ولا لين فيها أو ضعف كي تؤدي الغاية المأمولة منها وتُثمر الإصلاح المنشود فلا وسط في الإسلام بين الحق والباطل ولا بين النور والظلام ولا بين الفضيلة والفساد . قال تعالى[1] : ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴾ . وقال سبحانه[2] : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ ﴾ ، وقال جَلّ وعَلا[3] : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي

---

(١) سورة الكهف الآية « ٢٩ » .
(٢) سورة يونس الآية « ٣٢ » .
(٣) سورة الزخرف الآية « ٤٣ » .

أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

لقد كان رسول الله ﷺ في دعوته إلى ربه أميناً على رسالته لم تلن قناته للوعد ولم يفلّ من عزيمته وعيد . . وهكذا .

كلما كان الإنسان مؤمناً بحقه صادقاً في دعوته كلما كان تمسكه بالحق كاملاً وتعصبه للدعوة تاماً وقد كان ﷺ أول المؤمنين وأصدق الصادقين . وهو القائل لعمه عبارته الخالدة يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أَهْلَكَ دونه ، ذلك أن التهاون في الحق ليس له معنى سوى ضعف إيمان الداعية إليه ، وشكه فيه ويأسه من نصر الله له ومن كان هذا شأنه لا يصلح أن يكون لدين الله داعياً ، وللمسلمين رائداً لأنه سينقل إلى القلوب ما يحس به من ضعف وشك بدلاً من أن ينقل إليها ما يفيض به قلبه من إيمان بالله ويقين في نصره وما يضطرم به من غيرة على الحق وثورة على الباطل وعنوان صدق هذه الدعوة أيضاً يظهر في حبها والشغف بها والتفاني من أجلها وفي سبيلها ويأتي تحت هذا العنوان حرص النبي ﷺ أوّلاً ثم حرص صحابته رضي الله عنهم ثانيا ، على إيمان جميع الناس بعرض هذه الدعوة على قومهم والإشتغال بذلك والإهتمام به وتقديمه على جميع أمورهم ومقاصدهم وقيامهم به في كل زمان ومكان ولكل كائن من كان : الفرد والجماعة . والقريب والبعيد وفي النوادي والمجامع وفي مواسم الحج وعلى قبائل العرب وفي الحضر والسفر وفي السوق والمسجد وفي القتال ومشياً على الأقدام وإرسال الكتب للملوك والرؤساء .

فكانت الدعوة أحب إليهم من كل شيء وكانوا حريصين على أن يهتدي الناس ويدخلوا في دين الله أفواجاً وينغمسوا في رحمة الله وكان جل سعيهم وكل همهم في هذا السبيل لإيصال الخلق إلى الحق .

وعنوان صدق هذه الدعوة أيضا بقاء مبادئها وهذا من أجلّ صفاتها وأعظم سماتها لأن قيمتها أصلية وجوهرية وذاتية ودعوةٌ هذه قيمتها ، لا شك أنها باقية وخالدة لا تفنى ولا تزول بفناء الداعي إليها وزواله . فلو انتهى أجله في هذه الحياة بقي إيمان المؤمن بالدعوة وبمبادئها دون أن يتأثر بموت الداعي ومفارقته لأنه حينئذ يكون الإيمان بها خالصاً غير مشوب بمصلحة ترتبط بشخص الداعي وبحركته في الحياة : (1) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .

---

(1) سورة آل عمران الآية « ١٤٤ » .

من مقومات المجتمع الإسلامي النصيحة

مهما حاول بلغاء الكتاب ومصاقع الخطباء أن يحيطوا بمزايا هذا الدين القويم ومحاسنه الجليلة وصفاته المتينة وأصوله وفروعه وحكم تشريعه فلن يبلغوا الغاية من ذلك ولا ما يقرب منها وهذه كلها تمثل الحضارة الإسلامية الحقيقية التي يشترك فيها بنو الإنسان ويتمتع بمزاياها المسلمون وغيرهم وتتجلى فيها عظمة الإسلام وفي ظل هذه عاش المجتمع الإسلامي في سعادة وطمأنينة وأمان ورفاهية وتعاون وودّ ومحبة وصلة . ومن دعائم هذا المجتمع الإسلامي ومقوماته : النصيحة فقد قال النبي ﷺ : الدين النصيحة ثلاثاً قلنا لمن يا رسول الله قال لله عز وجل ولكتابه ولرسوله ﷺ ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، رواه مسلم .

هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه وقال الحافظ أبو نعيم : وله شأن عظيم وهو أحد أرباع الدين وقد ورد في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عموماً وفي بعضها النصح لولاة أمورهم وفي بعضها نصح ولاة الأمور لرعاياهم .

أما الأول : وهو النصح للمسلمين عموماً ففي الصحيحين .
عن جابر بن عبد الله قال بايعت النبي ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال حق المؤمن على المؤمن ستّ فذكر منها . إذا استنصحك فانصح له ، وفي المسند عن حكيم إبن أبي يزيد عن أبيه عن النبي ﷺ قال : إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له .

وأما الثاني والثالث : فهو النصح لولاة الأمور ونصحهم لرعاياهم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال إن الله يرضى لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصِحوا من ولّاهُ الله أمركم وفي المسند وغيره عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في خطبته بالخيف : من مني ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين . وفي الصحيحين عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال ما من عبد يَسْترعيه الله تعالى رعية ثم لم يحطها بنصيحة الالم يدخل الجنة .
والنصيحة : هي كالنصح نقيض الغش والخديعة وهما لغة : الإخلاصُ والتصفية ، من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع شبّه تخليص القول والفعل من الغش بتخليص العسل من الشمع أو من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه بالمنصح بكسر الميم وهي الإبرة التي يخاط بها والنِصاح « بكسر النون » وتخفيف الصاد الخيط

والناصح الخياط شبه فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح ولمِّ شعثه بلم الخياط خلل الثوب ولصق بعضه ببعض ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمزق الدين والتوبة تخيطه. وشرعاً : إخلاص الرأي من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته أو بذل المودة والاجتهاد في إصلاح المنصوح .

والحديث يدل على أن النصيحة عماد الدين وقوامه ورأسه إذ النصيحة لم تُبق من الدين شيئاً لأن من جملتها الإيمان بالله ورسله وطاعتها والعمل بما قالاه من كتاب وسنة وليس وراء ذلك من الدين شيء وقد جاء في حديث جبريل عليه السلام : إن الدين هو الإسلام والإحسان وجميع ذلك مندرج تحت ما ذكر من النصيحة ، وهي تحري الإخلاص قولاً وفعلاً واعتقاداً وبذل الجهد في إصلاح المنصوح سراً وجهراً وكل عمل لم يرد به فاعله الإخلاص فليس من الدين أصلاً ومن ثم لم يكن في كلام العرب أجمعُ من كلمة النصيحة كما أن كلمة الفلاح ليس في كلامهم أجمع منها لخيري الدنيا والآخرة .

والنصيحة ـ كما في هذا الحديث ـ تكون لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

أما النصيحة لله :

فتكون بالإيمان به ونفي الشريك عنه وإخلاص الإعتقاد في الوحدانية ووصفه بصفات الألوهية وتنزيهه عن النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والإعتراف بنعمته وشكره عليها والإخلاص في جميع الأمور

وبالجملة يعتقد أن الله عز وجل واحد في ملكه خالق العالم بأسره العلوي والسفلي والعرش والكرسي والسموات والأرض وما فيها ، وجميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ليس معه مدبر في الخلق ولا شريك في الملك حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا فعال لما يريد قادر على ما يشاء له الملك والغنى وله العزة والبقاء وله الحمد والثناء ، وله الأسماء الحسنى لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء لا يرجو ثواباً ولا يخافُ عقابا ليس عليه حق ولا عليه حكم فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وهذه النصيحة راجعة إلى العبد نفسه فالله تعالى غني عن نصح الناصحين .

وأما النصيحة لكتاب الله : فيعم جميع كتبه المنزلة بأن يؤمن بأنها من عند الله وتنزيله ، ويميز القرآن بأنه لا يشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر أحد منهم على الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، وأن يحب تلاوته بخشوع وإقامة حروفه في التلاوة ، والتصديق بما فيه ، وتفهم علومه ، وإكرامه والاعتناء بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه والتسليم لمشتباهه ، والبحث في ناسخه

ومنسوخه ، وعمومه وخصوصه ، وسائر وجوهه ، وأن يحب نشر علومه والدعاء إليه .

وأما النصيحة لرسوله : فتكون بتصديق رسالته والإيمان بجميع ما جاء به والتزام طاعته في أمره ونهيه ، حتى تصير همومه المختلفة وخواطره المتفرقة التي تنبعث من هوى النفس وميل الطبع متعلقة بأمر ربه وإتباع شرعه تعظيما له وشفقة على خلقه .

فلا يميل إلا بحكم الدين ولا يهوى إلا بأمر الشرع فهو المومن كامل التوحيد الذي يقبل منه التوحيد . ومن أعرض عنه متبعاً لهواه مبتغياً لرضا نفسه فهو الكافر الخاسر : في دنياه وعقباه من اتبع أصول الشريعة دون فروعها . فهو الفاسق ومن عكس فهو منافق .

ومن النصيحة له إحياء سنته والتفقه فيها والذب عنها وإجلال أهلها لإنتسابهم إليها والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ومحبة آل بيته وأصحابه ، وتجنب من تعرض لأحد من آله وأصحابه .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : أي أمرائهم فتكون بمعاونتهم على الحق وأمرهم به وتذكيرهم وإعلامهم بما غفلوا عنه من أمور المسلمين وحقوقهم والدعاء بالاصلاح لهم وترك الخروج عليهم والجهاد معهم وامتثال أمرهم في غير المعاصي.

وأما النصيحة لعامة المسلمين ، فتكون بإرشادهم إلى ما يصلح أخراهم ودنياهم وكف الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوه وستر عوراتهم وسد خلّتهم ومحبته لهم ما يحب لنفسه وعدم غشهم وتنبيههم على ترك الخصال الذميمة برفق ولين لأنه أقرب للقبول .

مبدأ الشورى

مبدأ الشورى من أهم الصفات التي امتاز بها المجتمع الإسلامي الأول ، وقد امتدح الله بها المسلمين في كتابه العزيز ، واعتبرها صفة من خير صفات الإنسانية ومزية من أجل مزايا البشرية ومبدأً من أقدس المبادىء الحضارية .

فقال تعالى :[1] ﴿ فَما أُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِيْنِ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ .

هذا المبدأ القويم هو مبدأٌ إسلاميٌ أصيل هو الذي تعنى به رجال الغرب وزعماؤهم واعتبروه يداً من أيادي مدنيتهم وحسنة من حسنات حضارتهم ودليلاً عن سمو تفكرهم وعدالة قوادهم وها هو

---

(١) سورة الشورى الآية « ٣٦ - ٣٩ » .

الإسلام ينادي به في غير آية من كتابه ويضعه بين الصلاة والزكاة اللذين هما أقدس أركان الدين ويسمي سورة قرآنه باسم الشورى إشارة إلى رفعة شأنها وعلو مكانها .

ويكفي دليلاً على سمو الشورى وقداستها في هذا الدين الحنيف أن رسول الإسلام ﷺ وهو المعصوم من الخطأ المنزه عن العيوب المرعيّ الملحوظ بعناية الله يأمره الله بمشورة قومه وبالرجوع إلى رأيهم في المشكلات والمعضلات فقال :[1] ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ ﴾ .

ولقد حاورَ الله ملائكته في خلق آدم وتعمير الأرض بخليفة جديد مع أنه هو العليم بخفايا الأشياء وأسرارها الخبير بحقيقتها وكنهها المحيط بكمها وكيفها البَصير بمبدئها ونهايتها لا تخفى عليه خافية مهما دقت ولا تعزب عنه مثقال ذرة مهما صغرت ومع ذلك استشار ملائكته وسألهم المشاركة في الرأي والتعاون على إظهار الحق حتى لا نستبدَّ فنهلك وحتى لا نتبع الهوى فنضل ولا شك أن الأدب وغاية الكمال أن يشاور الإنسان أخاه وأن يسترشد برأيه وأن يستعين به على أموره وهذا بعض ما للمسلم على المسلم من حقوق يجب التعاون عليها والتظاهر فيها .

[2]﴿ وَتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾

(١) سورة آل عمران الآية « ١٥٩ » .
(٢) سورة المائدة الآية «٢» .

ولا يستغني عن المشاورة إلاأحمق جاهل مستبدٌ لأن العقل البشري مهما كمل ذكاؤه وعظم تكوينه لا يمكنه أن يتبين صواب الرأي وحدَه لاسيما إذا اشتبهت الأمور واختلطت السبل وتعقدت الطرق . فالعقل البشري مهما كان ناضجاً لا يمكن أن يستغني عمن سواه من العقول . كالسيف وإن كان صارماً حاداً لا يمكن أن يستغني عن يد بطل صنديد . وكثيراً ما رأينا من الأفراد والجماعات من طوّح بسعادتهم وهنائهم الاستبدادُ في الرأي . فالزواج الفاشل والتجارة البائرة والصناعة الكاسدة والزراعة الخاسرة « والمشاريع المعطلة » « والأمة المحتلة » كل هذه النقم إذا تبينت أسبابها وتكشفت أسرارها تبين لنا وبجلاءٍ لا غموض فيه . أنها كلها ترجع إلى الاستبداد ، ويكفي الشورى فضلاً وفخراً أنها تجنب صاحبها عواقب الندم والحسرة وتعفيه من شماتة الأعداء وملامة الناس .

وأكثِر من الشورى فإنك إن تُصب   تجد مادحاً أو تُخطىء الرأي تُعذر

وهنا مسألة لا بد من مراعاتها ، وهي أنه ليس كل إنسان أهلاً لأن تشركه في رأيك أو تطلعه على دخيلة أمرك فالناس معادن مختلفة ودرجات متفاوتة . فمنهم الغبي الجهول ، ومنهم المغفل واللئيم ، ومنهم الحقود والغشاش .

فإياك أن تأخذ برأي واحد من هؤلاء فإنهم يضرون أكثر مما ينفعون ، ولأن يقع الإنسان في خطأ رأيه خير من أن يقع في مكيدة عدوه ، وما مثل هؤلاء إلا كمثل الشيطان يحسن للإنسان ضرره ويزين له هلاكه حتى إذا وقع فيه نكص على عقبيه وتبرأ منه وأظهر الشماتة به تعلّل بعلل واهية .

[1]﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ﴾ ولكن الذي يجب أن يشاور هو الحازم الحكيم العاقل الفطن القوي الإيمان المعروف بالإخلاص شديد الخوف من الله ، بعيد النظر واسع التجارب صاحب البصيرة النيرة والفكرة الموفقة الذي يحب للمسلمين ما يحب لنفسه ويتمنى لهم ما يتمناه لها ، عقله أكبر من هواه ودينه أكبر من دنياه . وليعلم المستشار أن رأيه عنوان عقله فلا يمنعه أحدٌ من الناس حتى وإن كان عدواً لأن العاقبة سوف تنسب إليه ويعرف بها وترويه عنه الأجيال والأيام وخير تراث يتركه الإنسان بعد موته ذكر جميل تتحلى به سيرته . وتُشرف به سمعته . وإن المشورة أمانة الله في عنقه فإن لم ينصح فقد خان ومن خان فإنما خان الله . وإن الله لا يحب الخائنين . وبعد :

فإن الشورى سنة من سنن نبينا ﷺ وهدى من تعاليم ديننا في كل الأمور الفردية والجماعيّة وهي من مقوماته وأركان عزّته وقوته وسيادته فلنتشاور في أمورنا ولنتعاون فيما بيننا على إظهار الصواب .

فإن عدم المشورة والإفراد في الرأي هلاك . قال ﷺ : ثلاث ملهكات : شحٌ مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . رواه البزار والطبراني والبيهقي من حديث أنس .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بكتابه وسنة سيد أحبابه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

---

(١) سورة الأنفال الآية « ٤٨ » .

من مقومات المجتمع الإسلامي
عدم الإسراف والتبذير ، والأخذ بمبدأ الاقتصاد

تتفاوت أغراض الناس في جمع المال وتباين مقاصدهم ونزعاتهم في الحصول عليه ولهذا فإن المال يمكن مدحه وذمه باعتبارين مختلفين فكلما كان الغرض شريفاً والرغبة صحيحة كان المال ممدوحاً وبالعكس .

فأما الأولى وهي جهة المدح فتكون فيما إذا أنفق في سبيل السعادة الأخروية كالاستعانة به على حفظ العرض والنفس والدين والتعفف عن الشهوات المحرمة والزهد عما في أيدي الناس وكذلك الإستعانة به على أداء الواجبات الدينية من حج وزكاة وصلة أرحام وإنقاذ حياة إنسان من الهلاك ، ونحو ذلك مما يوصل إلى السعادة الخالدة والنعيم المقيم فإنفاق المال على هذا الوجه لازم ضروري لا يتصور فيه إقتصاد . ومن يضننّ بإنفاق ماله في سبيل السعادة الخالدة فهو إما شحيح لا يعرف الغرض الصحيح من جمع المال والمحافظة عليه وإما مبذر ينفق ماله على اللّذات الفانية والشهوات الفاسدة التي لا نتيجة لها إلا الإفلاس والبؤس في الدنيا والشقاء يوم الدين .

فهناك حالتان ، الأولى : ضنٌّ بالمال وشح فلا ينفق على الواجبات الضرورية . ولا على اللذات الدنيوية .

والثانية : تبذير وإسراف بأن ينفق في سبيل اللذات والشهوات . وهاتان الحالتان مذمومتان وإنما الممدوح هو الوسط وهو إنفاق المال في سبيل السعادة التي ذكرناها أمّا ما عدا ذلك من

زخارف الحياة وزينتها كالقصور والرياش الفاخرة والسيارات وزيادة الخدم والتفنن في أنواع الطعام والشراب واللباس وغير ذلك من أنواع اللذات فإنه مباح ما دام منطبقاً على قواعد الدين لا يخرج عن حدوده لأنه حينئذ يكون منْ طيبات الرزق والله تعالى يقول :(١)
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾
وإنما تكون حراماً إذا ترتب عليها حرام كأن ينفق في سبيلها ما لا يحتمله ماله فيفضي به ذلك إلى الإفلاس في تجارته ، أو زراعته أو صِنَاعته لأن ذلك هو ألتبذير الحرام الذي نهى عنه الله ورسوله .

وكذلك إذا استغرق الإنفاق على هذه الكماليات كل ربحه فيضرّ برأس ماله، فلم يستطع القيام بالواجبات الدينية أو العمرانية ولم يتمكن من إدخار شيء ينفعه عند الحاجة إليه أو ترتب عليه ضياع مال الناس كما إذا كان مديناً لغيره فأنفق ماله في تلك الزخارف واللذات أو ترتب عليه إغراق في الرفاهية ومبالغة في التنعم فقسا قلبه بذلك وانصرف عن طاعة ربه أو تكبر على خلق الله تعالى إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي لا يقرها الدين ولا ترتضيها شريعة سيد المرسلين .

وبالجملة فإنّ زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها ونعيمها متى كانت حلالاً طيباً ولم يترتب عليها إسرافٌ أو خروج عن دين الله تعالى فإنها مباحة في نظر الدين .

ومن هذا البيان يمكن أن ندرك معنى الإقتصاد ومعنى التبذير

---

(١) سورة الأعراف الآية « ٣٢ » .

والإسراف في نظر الدين فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « التبذير إنفاق المال في غير حقه » وروي عن ابن عباس ومجاهد أن الإسراف: هو الإنفاق في المعاصي، والتقتير: هو الإمساك عن الطاعات .

وقد ورد النهي عن الإسراف والتبذير والحث على الإقتصاد في كتاب الله وسنة رسوله فمن ذلك قوله تعالى :[1]

﴿ وَالَّذِيْنَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً ﴾ .

ومعنى قواماً : وسطاً وعدلاً . وقوله تعالى :[2]

﴿ وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيْراً * إِنَّ المُبَذِّرِيْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِيْنِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ .

فذم الله تعالى المبذرين وجعلهم إخوان الشياطين . وقرناء هم في كفران نعم الله تعالى : التي أنعمها عليهم فبدلاً من أن يشكروه سبحانه عليها بامتثال أمره في شأنها فإنهم وضعوها في غير موضعها فانقلبت عليهم نُقماه وكانت نتيجتها العذاب مع الشياطين .

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي من أن النبي ﷺ قال : (السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة) ومعنى الحديث أن هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من

---

(١) سورة الفرقان الآية « ٦٧ » .

(٢) سورة الإسراء الآية « ٢٦ - ٢٧ » .

أجزاء فضائلهم فينبغي الإقتداء بهم فيها . ولا ريب أن هذه الأمور جديرة بأن تكون من أخلاق النبيين لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق. وأحاسن الصفات .

فأما المقتصد فهو دائماً عزيز الجانب كريم النفس لا تدفعه الحاجة إلى أن يذل لغني يستدين منه أو يستجديه ولا تضطره الشهوات إلى الملق والنفاق لمن يظن أنه يسدّ حاجته ولا يسوقه التوسع في المأكل والمشرب والمسكن وغيرها إلى الجبن والصغار ولا تزين له عوامل الزينة والزخرف اقترافَ الحرام أو جمع المال من أي طريق أو قول الزور ومساعدة المبطلين والتنكيل بالأبرياء والمظلومين وتضييع كرامته وإقعاء ذاته وغير ذلك من الصفات الذميمة التي تنشأ عن الإسراف والتبذير .

من أجل ذلك كان الاقتصاد من أسباب رقي المجتمع الإسلامي ومن بواعث نهضته وأركان سيادته . نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب وأن يرزقنا العمل بالكتاب وصلى الله وسلم على سيدنا الأحباب وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين .

المساواة

فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم :[1] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ صدق الله العظيم .

أيها المؤمنون :

تشير الآية الكريمة إلى أن الناس جميعاً متساوون في الحقوق متساوون في الواجبات وذلك لأنهم يرجعون إلى أصل واحد . وينتسبون إلى أب واحد وأم واحدة ، فأبوهم آدم عليه السلام وأمهم حواء وقد خلق الله آدم من التراب فالكل يرجعون إلى هذا الأصل وليس فيهم من ينتمي للسماء وعلى هذا فلا يفضل أحد أحداً ولا يرجح أحد منهم على أحد إلا بمقدار تقواه لربه وامتثاله لأمره واجتنابه لنهيه على هذا المبدأ العادل المقرر في تلك الآية الواضحة قامت المساواة في شريعة الإسلام وما نظنها في جميع الشرائع إلا كذلك . فالبشر جميعاً متساوون في الحقوق الإنسانية لأنهم كذلك متكافئون في أصل الخلقة البشرية فلا فضل للون على لون ولا جنس على جنس ولا شعب على شعب إلا بتقوى الله تبارك وتعالى .

لقد نطقت تلك الآية الخالدة بمبدأ المساواة وأكّده رسول الله ﷺ في أعظم المواقف وفي أشرف المواطن حتى لم يدع شكاً ولا ريباً في هذا المبدأ العظيم مبدأ المساواة بين الجميع وعدم مفاضلة

---

(١) سورة الحجرات الآية « ١٣ » .

بين الخلق لأي سبب من الأسباب سوى سبب الصلة بالله عز وجل وامتثال ما أمر واجتناب ما نهى وكان مما قاله ﷺ في هذا المعنى الكبير(الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله عز وجل) وقوله عليه الصلاة والسلام (إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله عز وجل وفاجرٌ شقي هين على الله عز وجل) .

إن المساواة التي قررها الإسلام لا تقف عند الحدود النظرية وإنما تتعدى ذلك إلى وقائع عملية يتأكد بها معنى المساواة بين الجميع بطريق العمل وبطريق التنفيذ ففي المسجد مثلاً يجتمع المسلمون خمس مرات في كل يوم وليلة لأداء فريضة الصلاة وإقامة شعيرة الجماعة ولتلقي دروس العلم والثقافة والهداية والإرشاد وكلهم سواسية لا فرق بين غني وفقير ولا بين قوي وضعيف ولا بين شريف وعادي بل الكل إخوة والجميع متساوون في الخضوع لله رب العالمين وفي إجتماع الجمعة يكون ذلك المعنى أشمل وتظهر تلك المساواة أعظم وأكمل . وفي صلاة العيدين والكسوفين والاستسقاء تحقيق لمعنى المساواة الإنسانية وتأكيد لروابط الإخوة الإسلامية . وفي موقف عرفات يقف المسلمون جميعاً في أرض الله على باب حرم الله . لا فرق بين لون ولون ولا بين جنس وجنس ، وفي النكاح زوّج رسول الله ﷺ بنت عمه زينب وهي شريفة قرشية زيدَ بن حارثة وقد كان عبداً معتقاً وكانوا يأنفون من نكاح الموالي وفي ذلك نزل قوله تعالى :[1] ﴿ وَما كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

(١) سورة الأحزاب الآية « ٣٦ »

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبيناً ﴾ .

وفي العقوبات الجنائية سوّى الإسلام بين جميع الخلائق في تنفيذ العقوبات وفي استيفاء الجراحات وفي إقامة القصاص فإذا قتل الشريف وضيعاً قتل به،وإذا جرح الغني فقيراً جرح به،واقتُص له منه بمثل جُرحه ولا يَشفعُ له غِناه ولا يدفع له شرفه وجاهه أمام التنفيذ شيئاً.

تلك هي شريعة الله تعالى وهذا هو طريق الحق والعدل والإنصاف وأن هذا التشريع ليس قاصراً على شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وإنما هو شريعة الأنبياء من قبله وسبيل المرسلين في العهد القديم :(1) ﴿ وكَيفَ يُحَكِّمونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَما أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيها هُدَىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِما اسْتُحفِظُوا منْ كِتَابِ اللَّهِ وكَانُوا عَلَيْهِ شُهداءَ فَلا تَخشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيْلاً وَمَنْ لَم يَحكُم بِما أَنزَلَ اللَّهُ فَأولٰئِكَ هُمُ الكافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ وَالعَينَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَم يَحْكُم بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

إن الضعيف في نظر الإسلام يعتبر قوياً إذا كان صاحب حق حتى يؤخذ الحق له والقوي يعتبر ضعيفاً إذا كان عليه الحق حتى

---

(1) سورة المائدة الآية « ٤٣ - ٤٥ » .

يؤخذ الحق منه وهكذا أعلنها صريحة أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما ولي الخلافة وتمت له البيعة، ولما سرقت امرأة في زمن رسول الله ﷺ وثبتت عليها تلك الجريمة بالطريق المشروع حاول قومها الشرفاء أنْ يدفعوا عنها حد السرقة وتوسلوا إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه ليشفع لها عند رسول الله ﷺ في إسقاط القطع فلما كلمه في ذلك غضب وقال أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : (يا أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) متفق عليه .

فهل بعد ذلك كمال في دين أو عدالة في تقنين أو مساواة في شريعة ؟؟ إن هذه المساواة قد تقررت في شريعتنا منذ أربعة عشر قرناً وسعد بها المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها . منذ ذلك التاريخ ولم يجد أحد منهم أي غضاضة في تنفيذها أو الخضوع لها بينما نجد التفرقة العنصرية تهدد كيان الملايين من البشر في جنوب أفريقيا بل في أرقى بلاد العالم حضارة ومدنية .

إن الإسلام يأمرنا أن نكون أخوة متحابين كما أمرنا الله لا نعتدي على أحد ولا نحتقر أحداً[1] ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا

(١) سورة آل عمران الآية «١٠٣» .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا . رواه البخاري .

الأمانة والوفاء

لا ريب أن صفة الأمانة والوفاء من أجل الفضائل التي يقدسها العقل في كل زمان ومكان وهي من مقومات المجتمع الإسلامي الرفيع الذي يريده ديننا الحنيف وعلى العكس من ذلك أضدادها فإنها من الرذائل الممقوتة التي يترتب عليها أسوأ الأثر بين الناس فمن كان أميناً وفيّا كان جديراً بأن يكون من جماعة المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . ومن كان خائناً مخلفاً وعده غادراً فاجراً كان منافقاً لا يصح أن ينتسب إلى الإسلام ولا يليق به قال الله تعالى :[1] ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

والوفاء والإيفاء هو القيام بما يقتضيه العقد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقاً بمال أو أمانة أو بيع وشراء أو تجارة أو زراعة أو صناعة أو كان متعلقاً بالعقود التي عقدها الله تعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف . فأداء ذلك كله من الوفاء بالوعد ومن الأمانة المطلوبين شرعاً وعقلاً .

والأمانة : هي الحقوق المتعلقة بالذمم لا فرق فيها بين أن تكون من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده سواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية فهي تشمل الأمانة على الأموال والأعراض والأنفس الأسرار والتكاليف الشرعية ونحو ذلك . وضدها الخيانة فمن حتفظ بتلك الحقوق يسمى أميناً . ومن أضاعها ولم يؤدّها كما هي

(١) سورة المائدة الآية «١» .

يسمى خائناً . فمن أذاع سراً أؤتمن عليه كان خائناً ، ومن كتمهُ كان أميناً ، ومن أؤتمن على أن ينقل حديثاً لغيره فنقله محرّفاً أو أخبر بخلافه كان خائناً ، وهكذا . ومنه تعلم أن الأمانة قد تتناول بعض أفراد الصدق كما تتناول كتم السر ، وأن الخيانة قد تتناول بعض أفراد الكذب كما تتناول إذاعة السر .

ومعنى الوعد هو أن يلزم الإنسان نفسه بأمر لغيره سواء كان ذلك الأمر مادياً أو أدبياً كأن يعده بمال أو هبة أو صلة أو ضمان أو كفالة أو معونة في عمل أو تعليمه علماً ، يقال وعده بخير وبشر فيستعمل وعد في الأمرين إذا ذكرا معه فإذا حذف لفظ خير ولفظ شر يقال في الخير وعد وفي الشر أوعد .

وخلف الوعد : ضرب من ضروب الكذب وفرد من أفراده المرذولة ولا ريب في أنه هو والخيانة من صفات النفس الذميمة التي تورث العداوة والبغضاء وتولد الضغائن والأحقاد وتكون مثاراً للغضب ، وما يترتب عليه من الشرور خصوصاً إذا كان الوعد متعلقاً بمصلحة هامة مادية كانت أو أدبية ويترتب على خلفه فوات تلك المصلحة أو كانت الأمانة على عرض أو مال فخانها من ائتمن عليها فإن الخيانة والخلف في هذه الحالة يكونان من شر الأمور المثيرة للغضب ويكون المخلف أو الخائن في هذه الحالة ظالماً مسؤولا عما يترتب على خيانته من النتائج .

فمن أجل ذلك نهى الدين الحنيف عن خلف الوعد والخيانة وحثّ على الوفاء والأمانة فقد قال رسول الله ﷺ : (آية المنافق

ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) رواه البخاري ومسلم . وقال ﷺ : (أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) رواه البخاري وغيره .

ومعنى هذا : أن الخيانة والغدر وخلف الوعد ليس من خلائق المؤمنين ولا من شيمة المسلمين إذ لا يليق أن يكون من خلائقهم ما يؤذي الناس ويورث العداوة والبغضاء ويرفع الثقة من بينهم لأن دينهم الذي يدينون به يأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل . ولا شك أن للوفاء والأمانة أحسن الأثر بين الجماعة والأفراد . فإذا اشتهرت أمة بالوفاء بوعدها والمحافظة على ما تؤتمن عليه من الأسرار والأموال والأنفس كانت محبوبة من جميع الأمم موثوقاً بها عندهم كريمة عليهم عيوبها مستورة وزلاتها مغفورة وإن احتاجت لمعونة مدت إليها الأيدي من كل مكان ، وإن أصابها مكروه تألم لها الناس من كل ناحية ، وبذلك تعيش سعيدة مكرمة عزيزة الجانب رفيعة القدر والمنزلة بين سائر الشعوب .

أما إذا اشتهرت بخلف الوعد والخيانة فإن الناس ينصرفون عنها ويخافون شرها وإن كان لها أعوان ينفضّون من حولها فلا تجد من أحد معونة ولا عطفاً ولا ترى مناصرة ولا براً فتكسد تجارتها وتقف حركتها وتبور صناعتها وتصبح منعزلة عن الشعوب والأمم وذلك هو الخسران المبين .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بكتابه وسنة سيد أحبابه .

من مقومات المجتمع الإسلامي

مفهوم الحكم في الإسلام

إن الإصلاح الحقيقي الجذري والتغيير الثوري حقاً هو ردّ هذه الأمة إلى أصولها ومنابعها وإخراجها من ذلك التيه الطويل لتعودَ إلى اكتشاف نفسها ومعرفة قدرِها وتتفتَح رؤ يتُها لغايتِها وطريقِها وتعملَ على تحقيقِ ذاتِها وإثباتِ وجودها . وإخراجِها من التبعية الفكرية إلى الاستقلالِ الحقيقي . ومن غَبش الرؤ ية إلى وضوحها ومن الذبذبةِ بين الإتجاهات إلى اتجاهٍ أصيلٍ متميز . لا شرقي ولا غربي ولا رأسمالي ولا شيوعي .

ولن تجد هذا إلا في الإسلام . فهو وحدَه سبيلُ الإنقاذِ للأمةِ وطريقُ الخلاص للبشريةِ .

ولقد أخطأً أدعياءُ الإصلاحِ لأنهم استوردوا المبادىءَ والخطط وساتعاروا النظمَ والشرائعَ من هنا وهنالك قبل أن يراجعوا الرصيدَ الروحي والتراثَ الفكري الذي هو ملكُ هذه الأمةِ إنهم يلجأون إلى الإستدانةِ ورصيدُهم مذخور ويستوردون وخزائُنهم غنية وخاماتُهم صالحة وإمكانياتُهم قوية .

إننا حين ننادي بالرجوع إلى الحكمِ الإسلامي وحتميةِ الحل الإسلامي فإنه تقفزُ إلى أَذهانِ كثير من المحسوبين على الإسلام - فضلا عن أعدائه يقفز إلى أذهانهم صور الخيام الساذجة في الصحراءِ وصور الأَعراب الرحل على الإبل أو العربِ المقيمين في الأكواخ ويتصورون بسذاجة أن معنى الحكم الإسلامي هو العودة إلى تلك الحياةِ البسيطةِ الساذجة الخاوية من كل أسباب الحضارة الإنسانية التي استحدثت في خلال ألفٍ وأربعمائة عام .

وإذن فلا عمارةَ ولا مدنية ولا صناعة ولا تجارةَ ولا علم ولا فَن حتى الشعر ذلك الفنُّ العربي الأصيل يخيل لهذا الفريقِ من الناس أن حكمَ الإسلام سيختمُ على أفواه قائليهِ ومنشديهِ ما لم يحولوه إلى مواعظ دينية وأَلفيات نحوية .

وليس حكم الإسلام هو الذي يثير هذه الصورة الماحلة في خيالهم بل إن بعضَهم ليثير هذه الصورةَ في حسه مجردُ الدعوةِ إلى الأخلاق ويقول قائلهم إذا كنا سنتحدث عن الأخلاق إذن فلنرجع إلى عيشة الخيام [كما نقل ذلك الشهيد سيد قطب عن أحد أساتذة التربية العائدين من أمريكا في كتابه معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥] .

إن النظامَ الإسلامي ليس معناه فقط صورة ذلك المجتمع الإسلامي في نشأته . بل معناه كل صورة اجتماعية خاضعة لفكرة الإسلام الكلية عن الحياة .

والنظامُ الإسلامي يتسع لعشراتٍ من الصور تتفق مع النمو

الطبيعي للمجتمع ومع حاجات العصر المتجددة ما دامت فكرةُ الإسلام الكلية تسيطرُ على هذه الصور في محيطها الخارجي الفسيح .

إن الشظفَ والبداوَة ليسا أصلا من أصول الإسلام كما يعتقدُ بعض الجهلة من الناس . إنما كان الشظف ظاهرة اقتصادية في مرحلة خاصة .

وقد كان ﷺ يحثهم على الصبر ويؤكد على ذلك ويقوي عزائمهم كيلاً تتهافتَ نفوسهم وتنهارَ قواهم وتخذُلهم طاقتُهم على المقاومةِ والكفاحِ . فأمّا بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن يستمتع في الحدودِ التي لا تصل إلى مستوى الترفِ ولا تدعُ الإنسانَ عبداً لشهواته ولذائذه .

وقد استجابت هذه الشريعة الغراء لمطالب حياة البادية كما استجابت فيما بعد لحياةِ الدولة الناشئة في عهد سيدنا محمد ﷺ المتوسعة في عهدِ الخليفة الراشدِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم ظلتْ تستجيبُ لحياة الحضارةِ فيما بعد ما بقيت في الأمة الإسلامية حياة .

ثم وقعت أحداثٌ وأحداث اختل فيها توازن الشخصية الإسلامية وماتت حيويتها وانعزل فيها الحكم الإسلامي المتكامل والمنهج الرباني الشامل .

وإذا دبت الحياة في هذه الأمة فالشريعة الإسلامية حاضرة تلبي حاجتها المتجددة ومطالبها المتغيرة بما فيها من سَعة ومُرونة وشُمول .

مفهوم الولاية في الإسلام

ليست الولاية في الإسلام سلطة جبرية أو غنيمة مالية .

إنها امتحان قبل أن تكون إحساناً ، إنها حراسة الدين وسياسة الدنيا .

إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة ، وحاط به الملة ، وفوض إليه السياسة ، ليصدر التدبير عن دين مشروع ، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع ، فكانت الإمامة أصلاً ، عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة .

وقد أخبر جلّ وعلا في كتابه أنه أنزل الكتاب والحديد ليقوم الناس بالقسط فقال تعالى[1] : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَاالْحَدِيْدَ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالْغَيْبِ إنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيْزٌ) .

(١) سورة الحديد الآية « ٢٥ » .

ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بتوليةِ ولاةِ أمور عليهم وأمر ولاةَ الأمور أن يردوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل وأمرهم بطاعة ولاةِ الأمور في طاعة الله تعالى .

ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » وفي سننه أيضاً عن أبي هريرة مثله . وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم) .

فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات . وأقصر الإجتماعات أن يولى أحدهم، كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك .

ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان من أفضل الأعمال الصالحة حتى قد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال (إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر ؟) .

وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر وهذا نعت النبي والمؤمنين كما قال تعالى[1] : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

---

(١) سورة التوبة الآية « ٧١ » .

وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره .

والولاة وذوو السلطان أقدر من غيرهم وعليهم من الوجوب ماليس على غيرهم فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل إنسان بحسب قدرته قال تعالى[1] : ﴿ فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ .

وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ذكر العلماء أن من يلي أمر المسلمين يلزمه عشرة أشياء :

أحدها : حفظ الدين على الأصول المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمَة فإن ظهر بـاغ أو زائغ أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه لما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من الخلل والأمة ممنوعة من الزلل .

الثاني : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين،وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث : حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

الـرابع : إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إنتلاف واستهلاك .

الخـامس : تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى

(١) سورة التغابن الآية « ١٦ » .

لا تظهر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً .

السادس : جهاد من عاند الإسلام كله .

السابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف .

الثامن : تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

التاسع : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه من الأعمال يكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة .

العاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح ، وقد قال الله تعالى :

(١)﴿ يَا دَاوودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ .

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذرة في الاتباع حتى وصفه بالضلال ، وهذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع،قال النبي ﷺ :

(١) سورة ص الآية « ٢٦ » .

(كلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته) .

وإذا قام الإمام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم . ووجب له عليهم حقان الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله .

ولقد أحسن الشاعر في وصفه للإمام المدبر بقوله :

من كان حارس دنيا إنه قمن   أن لا ينام وكل الناس نُوّام
وكيف ترقد عينا من تضيفه   همّان من أمره حَل وإبرام

مفهوم الجهاد في الإسلام

(١)

الجهادُ فرض مكتوب على المسلمين كالصوم والصلاةِ ، والعملُ به ماض إلى يوم القيامة . قال تعالى :[١] ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ وقال عليه الصلاة السلام : (الجهادُ ماض إلى يوم القيامة) وهو حشد القوى الماديةِ والمعنويةِ وتنظيمُها لمحاربة العدو بكل الوسائل التي تتفق مع الفطرةِ البشرية ولا تَمُس الشرف الإنساني ، وتشتركُ فيه الأمة المحمّدية جميعاً . قال تعالى :[٢] ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِيْنَ ﴾ . ولا يعفى منه إلا أربعة أعفاهم الله بشروطٍ خاصة يُنفي الإعفاءُ منها بانتفائها وهم :

١ ـ الضعفاء الذين لا يستطيعون حملَ السلاح ومنهم أصحاب العاهات .

٢ ـ المرضى حتى يصحوا .

(١) سورة البقرة الآية « ٢١٦ » .
(٢) سورة التوبة الآية « ٣٦ » .

٣ ـ الفقراءُ الذين لا يجدون ما ينفقون حتى يغنيهم الله .

٤ ـ المتطوعون الأقوياءُ الذين لا يجدُ الإمامُ ما يجهزُهم به ولا يجدون من يقوم بذلك بشرط أن يقوموا جميعاً من وراء الجيش بالدعاية والنصيحة وأداء ما يستطيعون من أعمال .

قال الله تعالى :(١) ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِيْنَ لاَ يَجِدُوْنَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِيْنَ مِنْ سَبِيْلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِيْنَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تولَّوْا وأَعْيُنُهُم تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنفِقُونَ * إِنَّما السَّبِيْلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُم أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ وَطَبَع اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

حكمه :

وللجهاد أحكام تختلف باختلافِ الدواعي والملابَسات فهو تارةٌ مفروضٌ على المسلمين جميعاً لا يَسقُط عن بعضهم إذا نهض به الآخرون ، وهو حيناً مفروض عليهم فرضَ كفاية يقوم به بعضُهم فيسقطُ عن الباقين .

١ ـ فهو فرض عين في عدة حالات :

أ ـ إذا هجم العدُو على بلدٍ من بلاد المسلمين وجب على أهل هذا البلدِ أن يخرجوا إلى العدوِّ ليقوم كل منهم بما يستطيع

(١) سورة التوبة الآية « ٩١ـ ٩٣ » .

القيام به ولا يتخلف منهم أحد سواء أكان من المقاتلين أم من غيرهم .

وهذا هو النفير العام الذي يشترك فيه الجميع ، المرأةُ والعبدُ والغلامُ والشخصُ الذي له أب أو أبوان سواء أذنا لَه أم لم يأذنا[1] .

ب ـ فإن عجزَ أهلُ هذَا البلد عن صدّ عدوِهم أو تكاسلوا عن النهوضِ له وجبَ الجهاد على من يليهم وهكذا حتى يصيرَ فرضاً بالتدريجِ على المسلمين جميعاً .

فلو سبيت مسلمةٌ بالمشرق لوجبَ على أهل المغرب تخليصُها من السبي . قال تعالى :[2] ﴿ انْفِروا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ .

وقال سبحانه :[3] ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيْلَ لَكُمُ انْفِروا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ اثاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ أَرَضِيْتُم بالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلاّ قَلِيْلٌ * إلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيْماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئَاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٍ ﴾ .

ج ـ وهو واجب على كل من علم بضعف المسلمين عن محاربةِ عدوهم وهزيمتِه وهو يستطيعُ أن يغيثَهم لأن المسلمينَ كلَّهم يدٌ على من سواهم ولهذا إذا استطاع أهلُ البلد المعتدَى عليه أن

---

(١) المحلى لابن حزم ٧ / ٢٩٢ .

(٢) سورة التوبة الآية « ٤١ » .

(٣) سورة التوبة الآية « ٣٨ ـ ٣٩ » .

يردوا عدوهم سقطَ الجهاد عن الآخرين .

د ـ كذلك يجبُ على المسلمين إذا ما قارب العدو دار الإسلام ولم يدْخلها حتى يظهرَ دينُ الله ويُصان الوطن ويُهزم العدو وليس في هذا خلاف .

٢ ـ وهو فرض كفاية في حالات أخرى :

أ ـ إذا كان بعضُ المسلمين قادرين على الدفاعِ وقتالِ الأعداءِ فإن هجَم العدو على بلدٍ إسلامي وكان أهلُ هذا البلد ذوي مَقدرة على صدِّه فإنَّ الجهادَ ليس فرضاً عينياً على جيرانهم بل هو فرض كفاية ما دام إخوانُهم غيرَ محتاجين إليهم ، ولكن إذا عجزُوا عن المقاومةِ أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تراخَوْا عن الجهادِ صارَ فرض عين على جيرانِهم لا يسعُهم تركُه ، فإن عجزَ هؤلاء الجيران أو تكاسلوا صارَ فرضَ عين على من يلونهم .

وهكذا إلى أن يصيرَ فرضاً عينياً على المسلمين جميعاً وقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يجعله فرض عين دائماً لئلا يشتغل به المسلمُون جميعاً فتتعطل مصالحهم .

ب ـ وهو فرض كفاية إذا كان المسلُم ممن لا يستطيع الجهادَ لأنه مريض بمرضٍ يقعده أو لأنه غير قادر على حملِ السلاح أو لأنه لا يمتلك الراحلة والزاد أو لأنه من الذين أعفاهم الله تعالى .

فما حكم الجهاد اليوم :

ما حكمه وإسرائيل تبغي فساداً في فلسطين ، وتعيث شراً في

بيت المقدس أولى القبلتين وثالثِ الحرمين ، وتُنزل بالمسلمين هناك أبشع ما سمعَ به التاريخ من وَحشةٍ وتنكيلٍ وانتهاك للحرمات ، وتطرد الأهلين الأُصلاء الأبرياء من ديارهم ، وتنتهبُ ثَرواتهم ، وتحشدُ في السجون والمعتقلات عشراتِ الألوف من الأبرياء ، وتقتلُ الرجال والصبيان والشيوخَ والنساء .

ما حكمه وإسرائيل تطغى على قِطع عزيزةٍ من الوطن العربي الإسلامي « في مصر وسورية والأردن » .

ما حكمه وإسرائيل تعلن في وقاحة وتتبجح أن وطنها المنشود يمتد من الفرات إلى النيل .

فإذا كان هؤلاء قد ضعفت قوتهم أن تهزم القوى الدولية التي تمد إسرائيل وتساندها فقد صار الجهاد فرض عين على المسلمين جميعاً من الباكسْتان شرقاً إلى المغرب غرباً ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى السودان جنوباً .

يقول ابن عابدين :

إياك أن تتوهم أن فرضيته تسقط عن أهل الهند بقيام أهل الروم به مثلاً ، بل يفرض على الأقرب فالأقرب من العدو إلى أن تقع الكفاية فلو لم تقع إلا بكل الناس فهو فرض عين كالصلاة والصوم.

ولهذا لا ينبغي للإمام أن يخلي ثغرا من الثغور من جماعة من المسلمين فيهم غناء وكفاية لقتال العدو .

فإن قاموا به سقط عن الباقين وإن ضعف أهل ثغر عن مقاومة الأعداء وخيف عليهم منهم فعلى من وراءهم من المسلمين الأقرب

ما حكمه وإسرائيل تتطلع في جشعٍ مسعور إلى أن تستولي على شمالي الحجاز إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ما حكمه وإسرائيل تراوح المسلمين والعرب وتغَاديهم بعدوان مسلح تؤازره دول معادية للعرب وللإسلام وبينهم وبين العرب والمسلمين إحن وثارات .

ما حكمه وقد أحرقت إسرائيل المسجد الأقصى فكشفت عن خبث طويتها ودنسِ نيتها وشرها الذي تبيته للإسلام والمسلمين .

أهو فرض عين على أهل فلسطين !

نعم إنه فرض عليهم جميعاً .

ولكنهم عجزوا عن صد إسرائيل فصار فرض عين على جيرانهم في الأردن وسورية ولبنان والعراق ومصر .

فالأقرب أن ينفروا إليهم وأن يمدوهم بالسلاح والمال . لأن الجهاد فرض على المسلمين جميعاً ولكنه يسقط عن بعضهم . لأن بعضهم الآخر قام به .

الجهاد اليوم فرض عين .

فرض عين على الدول الإسلامية .

وفرض عين على الجيوش الإسلامية .

وفرض عين على كل فرد يستطيع أن يساهم فيه بجهد يساعد على النصر ويمحو وصمة الهزيمة ويرد الحقوق إلى ذويها . ويعلي كلمة الله ، سواء أكان الذي ينهض به نائياً عن فلسطين أم دانياً من نواحيها.

مفهوم الجهاد في الإسلام

يرسمُ أعداءُ الإسلام عن « الجهاد » صورةً تخالفُ تماماً حقيقته الواضحة وغايته الساميةَ فهو عندهم عبارة عن شراسةِ الطبع والخُلق والهمجيةِ وسفكِ الدماء ويتلقى أبناءُ المسلمين أو الجهلةُ المثقفون بالثقافة الغربية هذه الصورة الخاطئة عن مفهوم الجهاد .

فينخدعون بتزوير أئمةِ الباطل ويقعون في الحيرة والشك ويعتريهم أحيانا الخجل والندامةُ من تاريخهم المجيد الذي كان عِنوانه الجهاد .

إن القتالَ في الإسلام لا يكون قط إلا في سبيل الله . لإعلاء كلمتهِ سبحانه وتعالى وتأمين دينهِ وحماية نشرِ دعوتِه والدفاعِ عن حِزبه حتى لا يغلبوا على حَقهم ولا يُصدوا عن إظهار أمرهم . والمحافظةِ على المسلمين عامة وبلادِهم وممتلكاتهم من الطامعِ المهاجم إذا همّ باغتصابها أو التمتعِ بخيراتها أو بإذلالهم في أي بقعة من أرض الله ، أو بالاعتداء على استقلالهم السياسي والاقتصادي أو الاجتماعي أو غير ذلك من أنواعِ الاعتداءات الكثيرة ، فهو دفاع عن العقيدة والحوزةِ والأتباع ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ومطاردةِ الكفر وقطع دابر الظالمين .

والإسلام لم يعمد إلى القتال كوسيلةٍ من وسائل نشره . وإنما كان ذلك تطوّراً طبيعياً تقتضيه طبيعةُ الدعوة وتهيئةُ ظروفِها وملابساتها وموقف الكافرين منها ولم يتقرر إلّا بعد أن مرت الدعوةُ الإسلامية بمراحل متعددة وهي أولاً : مرحلةُ الدعوةِ سراً . وثانياً :

مرحلة الدعوةِ جهراً وثالثاً : مرحلةُ القتال للدفعِ ، وكانت المرحلة الرابعة هي : مرحلةُ القتال ابتداءً وهي خاصة ببعض الأماكن والأزمنة دون غيرها ، وذلك بمواجهةِ القوة بالقوة واستخلاص الحقوق المغتصبةِ والتمكن للحق في غيرِ الأشهر الحرم والبيتِ الحرام[1] : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [2]﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيْهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّيْنُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إلاّ عَلى الظَّالِمِين ﴾

وكانت المرحلةُ الخامسة : القتالُ مطلقاً في كل زمان ومكان : وهي للتخلصِ من العدوّ الداخلي كاليهود والعرب وتأديب العدو الخارجي كالفرسِ والروم ، وتأمينِ المسلمين على دعوتهم ودولتِهم ووطنِهم ، وللتفرغ للإصلاحِ العام ونشر الدّعوة[3] : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ويَكُفّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبيناً ﴾ .

فالجهادُ الإسلامي ليس حرباً استعماريةً كتلكِ الحروب التي اصطلى العالمُ بها في القديم والحديث .

إن الخلط بين الجهادِ والحروبِ الاستعمارية خَطَل في الرأي وَجورٌ في الحكم ومجافاةٌ للحق وتَجنٍّ على الإسلام لأنَ الحروب

(١) سورة التوبة الآية « ٥ » .
(٢) سورة البقرة الآية (١٩١ - ١٩٣ » .
(٣) سورة النساء الآية « ٩١ » .

الاستعمارية إنطلاقٌ إلى التوسعِ والتطلعِ إلى الاحتكارِ والسَّلبِ والاستيلاءِ على خيراتِ البلاد المفتوحةِ والقبضِ على ينابيع ثروتها وهي لا تنفكُ عن الأثرة والتعالِي وإهمالِ الأهلينِ وأصحاب البلاد الأُصلاء وليست لها غايةٌ نبيلةٌ تُسوّغُ ما تقترفه من جرائمَ وآثام .

وإن اختيارِ الإسلامِ لكلمةِ الجهاد التي تُؤدي معنى بذل الجهود والسعيِ وتجنبه لفظة « الحرب » وغيرَها من الكلماتِ التي تؤدي معنى القتالِ له سر عظيم وهو أن لفظة « الحرب » كانت ولا تزال تطلقُ على القتالِ الذي يَشبُّ لهيبُه وتَسْتَعِر نارُه بين الرجالِ والأحزاب والشعوبِ لمآرب شخصية وأغراضٍ ذاتيةٍ والغاياتُ التي ترمي إليها أمثالُ هذه الحروب لا تعدو أن تكونَ مجردَ أغراضٍ شخصية أو اجتماعية لا تكون فيها رائحةٌ لفكرةٍ أو انتصار لمبدأ . وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة « الحرب » البته . فإن الإسلامَ لا ينظر إلى مصلحةِ أمةٍ دونَ أمة ولا يقصد إلى النهوضِ بشعبٍ دون شعب . وكذلك لا يهمُه في قليلٍ ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك . وإنما تهمه سعادةُ البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادةِ المجتمع البشري والصعـود به إلى معارج الفلاح .

ولذلك كان «الجهاد» لا يذكر إلا مقترنا بلفظ «في سبيل الله» وسبيلُ الله في المصطلحِ الإسلامي لفظ جامع لأصول الخيرات شامل لمهمات المبرات فكل عملٍ تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاءً لمرضاةِ الله لا تريد به مغنماً أو مكسباً في الحياةِ العاجلة فهو في سبيل الله في نصر

الإسلام فما قيد الشارع الجهادَ بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى فالذي يتطلبُه الإسلام أنه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين تبذلُ جهودَها وتستنفذ مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة وتكوينِ نظامٍ جديد حسبَ الفكرة الإسلامية ، فعليها أن تكونَ مجردة عن كل غرضٍ مبرأةً من كلِ هوى أو نزعةٍ شخصية لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظامٍ عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ولا تبتغي بها بدلا في هذه الحياة الفانية ولا يكون من هم الإنسان خلالَ هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاءِ كلمة الله أن ينالَ جاهاً وشرفاً أو سمعة ولا يخطرنَّ بباله أثناءَ هذهِ الجهود البالغةِ والمساعي الغاليةِ أن يسموَ بنفسِه وعشيرتِه ويستبد بزمام الأمر ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة المناصب العالية بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم ، وها هو القرآن الكريم ينادي بملء صوته[١] : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية « ٧٦ » .

مفهوم المساواة في الإسلام

يزعم أعداءُ الإسلام أنَّ المساواة الإجتماعية معدومةٌ في نظامِ الإسلام ، وأنه يشجع على الطبقية المتفاوتة المستغلةِ المستأثِرة ، ونسمع هذا الزعم أيضاً وللأسف من بعضِ أبناء المسلمين الذين يدّعون الثقافَة والعلمَ وهم في جهل وعَماء عن أبسط مبادىء الدين . وهذا زعم فاسد يردّه واقع الإسلام المشاهد المحسوس .

إن المبدأ الذي وضعه الرسول (الناس سواسية كأسنان المِشط) واضحٌ جداً فلا كبير ولا صغيرَ ولا غني ولا فقير ، ولا أميرَ ولا صعلوك . . . الجميع سواسية .

هم يعبدون جميعاً إلهاً واحداً يَدْعونه ويتوجهون إليه بلا واسطة ولا شفعاء ويقفون في الصلاة صفاً واحداً الأبيضُ بجانب الأسود والحاكم بجانبِ أي فرد من أفراد الرعية . يصومون شهراً واحداً بشكل واحد ووقت واحد لا يسقط الصومَ عن أحد غناه ولا حسبُه ولا لونُه ولا يزيد فيه فقره أو زهدُه .

ويدفعون الزكاة ـ والزكاة للمجتمع لا لله ـ بنسبة واحدة تنقص

على الفقير لأن ماله قليل ، وتزيد على الغني لأن مالَه كثير ، ولأن للمجتمع فيه حقاً .

وفي القضاء نجد قانوناً واحداً يطبق على الجميع والهدفُ الوحيد الذي ألحّ الإسلام على بلوغِه هو العدل وإنَّ أصغر رجل من الرعية يجيزُ له الإسلام أن يقاضي الحاكمَ أو الخليفة أو السلطان أو الأمير إذا ظلمه . والشرع واحد للجميع ، والقانون يطبق على الجميع فعندما سرقت المرأة المحزومية ـ وبنو مخزوم كانوا من سادة العرب ـ جاء أسامة بن زيد إلى رسول الله ﷺ ليشفع بها . فقال رسول الله ﷺ : يا أسامة أتشفعُ في حد من حدود الله ؟ إنما هلك بنو إسرائيل لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . (وهذا حديث صحيح رَواه البخاري ومسلم) .

وهذه المساواة الاجتماعية واضحة في كثير من حِقَب تاريخنا .

خُذ مثلاً رجلاً كأبي هريرة يحدثنا عن نفسه فيقول : نشأتُ يتيماً وهاجرتُ مسكيناً وكنت أجيراً لبني غَزْوَان بطعام بطني . . أَحدو بهم إذا ركبوا ، وأحتطب إذا نزلوا فالحمد لله الذي جعل الدين قِواماً ، وأبا هريرة إماماً .

فكيف كان لأبي هريرة الأجير المسكين أن يرتفع إلى هذه المنزلة ويؤم المسلمين لولا أن ساوى الإسلام إجتماعياً بين الناس ؟ وهدم الفوارق الطبقية بينهم .

وهذا أبو العالية الرياحي « مات سنة ٩٣ » كان عبداً مملوكاً لامرأة من بني رياح فقرأ القرآن وبرع فيه حتى أصبح لا يوجد بعد الصحابة من هو أعلم بالقرآن منه . يحدثنا عن نفسه فيقول : كان عبد الله بن عباس يرفعني على سريره . وقريش أسفلَ منه ويقول : العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة .

فمن أين لهذا العبدِ أن يرتفع على ابن عم رسول الله ﷺ لولا أن الإسلام ساواه به وأنه جعل للعالم منزلة ليس مثلُها منزلةَ الحسب .

وهذا الإحساس بالمساواة الإجتماعية هو الذي كان يدفع أي فرد من أفراد الرعية إلى الاعتراض على الخليفة أو الحاكم إذا ظلم أو أخطأ وهو الذي كان يدفعه إلى نصحه وإسداء المشورة دون خوف أو وجل .

جاء رجل يحدث في دمشق ويحاول أن يصرف الناس عن أخطاء الحكام زمن بني أمية . فقال : اعبدوا ربكم ولا تشركوا به شيئا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الأمراء فإن كان خيراً فلكم وإن كان شراً فعليهم وأنتم منه براء . وكان الشعبي العالم حاضراً فوقف وقال له : كذبت .

وفي أيام الصليبيين سمح الملك الصالح إسماعيل لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها . وأعطاهم بعض المدن فثارت ثائرة العِز بن عبد السلام وأصدر فتوى ضد الملك الصالح حرم فيها بيع السلاح للفرنج لأنهم يشترونه ليقاتلوا به المسلمين ، وصار

يعرّض بالملك على المنبر في مسجد دمشق غير مبال ولا خائف فاعتقله السلطان ومنعه من الفتيا فلم يخف ولا توانى عن أداء واجب النصح والتحذير .

وهناك مئات من الحوادث تشبه هذه . فلولا الإحساس بالمساواة الإجتماعية لما تجرأ واحد من هؤلاء على الإعتراض أو النصح أو التحذير .

مفهوم الحجاب في الإسلام

يظن بعضُ الجهلة أن الحجابَ قيد للمرأة ونظامٌ ثقيل وعادة قديمة هي السبب في التأخرِ الذي يشتكي منه المفكرون المسلمون ، وأنه استعْباد للمرأة وعزلٌ لها عن العالم وانتقاصٌ من كرامتها وشخصيتها ومن هذه الدّعوى والنقطةِ انطلقت الفتنةُ فانجرف وراءها من انجرف وبقي من حفظه الله وتردد من تحير .

والواقع أن الإسلامَ هو الذي حرَّر المرأة عامة وهو الذي له عليها الفضلُ العظيم والمنةُ الكبرى . لقد كان حال المرأة في الجاهلية حالَ بؤس وذلةٍ وهوان ، لقد عاملوا المرأة كالسوائم لا حقَّ لها ولا كرامةَ كما جعلوها إرثاً كالمتاع يتوارثونه عن بعضهم بعضاً تباع وتشترى في الأسواق وقد سموها رجسةً من عمل الشيطان في بعض الأديان .

وحرّموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الطفل ، وجاء في شرائع الهند أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة وأنها رجس يجب أن لا تأكلَ اللحم وأن لا تضحك

بل ولا أن تتكلمَ وفرضوا عليها عقوباتٍ كثيرة بدنية ومعنوية باعتبار أنها أداة للإغواء يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب .

أما في فرنسا فقد عقد علماؤهم إجتماعاً في القرنِ السادس الميلادي يبحثون فيه هل المرأة إنسان أم غير إنسان وانتهوا إلى أنها إنسان لكن خلق لخدمة الرجل . أما في انكلترا فقد أصدرَ الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتابِ المقدس على النساء كما أن النساء كنّ غير معدوداتٍ من المواطنين ولا حقَّ لهن في التملك ولا لملابسهن ولا للأموال التي يكسَبْنَها بعرق الجبين .

أما الإسلام فإنه هو الذي رفَع عن المرأة الحيف والظلم ورفعَها إلى مكانةٍ عالية لم تصل إليها في آخر تطورات المدنية . الإسلام هو الذي أعلن أن المرأة أحد العنصرين الذين تكاثر منهما الإنسانُ وجعل ذلك نعمةً ومنة كما قال تعالى(١) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ .

والإسلام هو الذي أعلن للمرأة وأثبت لها حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حدودها الخاصة بها والقيام بالأعمال الصالحة(٢) : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية « ١ » .
(٢) سورة التوبة الآية « ٧١ » .

والإسلام هو الذي أمر بالإحسان للزوجات ووصول الخيرِ إليهن وأنقذها من الإستعبادِ والحرمانِ من الحرية الإنسانية الشخصيةِ وجعل لها حقوقاً كثيرة مفصّلة في كتب الفقه والتشريع (استوصوا بالنساء خيراً) خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي .

وأعظم إكرام أهداهُ الإسلام للمرأة هو أنه أمرها بما يصونها من السقوطِ والتدليسِ وبما يحفظ أنوثَتها ويبعدها عن مظانِ الفتنة ويجعلُها في حصنٍ حصين من العفةِ هو الحجاب الشرعي فما هي صلة الحجاب بالتأخر المزعوم . ترى هل تمرض المرأة بالحجاب أو تنهزم جيوشُ المسلمين أمامَ الأعداء أم هل تتعطل العقول المخترعة عن التفكير أم هل تتوقفُ مواردُ الخير عن الأمة وسبُل العيش ، الحجاب ليس سُقما للمرأة إنما هو زينة لها يكسبها حشمة ووقاراً فإن كان في الحجاب تأخر للمرآة فإنه تأخر محمود لأنه تأخر عن حضارةِ الجاهلين وفتنةِ الضالين .

حتى هذه الآداب الإسلامية والأحكام المنيعة المحكمة اعترف بفضلها بعض علماءِ الغرب من المنصفين المفكرين فقال بعضهم : الحجاب في نظرِ الإسلام ليس معناه انتزاع الثقة بهن وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظِ بما يجب لهن من الاحترام وعدم التبذل فالحق أن مكانة المرأة في الإسلام ثمينة بأن تُغبط عليها .

إن الإسلام الذي حرم السفورَ وفرض الحجاب حينما جاء بتعاليمه السمحة ومثله العليا ، إنما جاء بدينِ العلم والسلام ودعوةِ الحق والتحرر من عمل الجاهلية ومن قيود الهوى والتقليد الأعمى

والانطلاق نحو المُثُل العليا البنّاءة وتكوينِ المجتمع الصالح المفيد المؤسس على تقوى الله العظيم وفي سبيل تأسيس هذا المجتمع وبناء صرح هذه الأمة الطاهرة العفيفة الشريفة فرض الله سبحانه وتعالى الحجاب « في السنة الخامسة » في جملة آيات قرآنية هي صريحة الدلالة على لزوم الحجاب ومنع الرجل من النظر للمرأة الأجنبية ومنع المرأة أيضاً من النظر للرجل الأجنبي يقول الله سبحانه وتعالى[١] : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

ويقول اللّه تعالى[٢] : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُورِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ .

لقد عرف المسلمون المتمسكون بدينهم من هذهِ الآيات أن الحجاب فرضٌ على نساء المؤمنين وأنه فُرض فرضاً أكيداً وأنه أوصى كل واحدة أن تستر جسمها سِتراً تاماً ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يمنع المرأة المسلمة إذا كان لها حاجة أن تخرجَ في أطمارها أو أطمار جارتها مستخفية لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها . وتقول أم سلمة زوج النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغِربان من السكينة وعليهن أكسيةُ تسود كالملاءة في عصرنا وقد نفّذ هؤلاء المؤمنات أمر الله تعالى بالحجاب وهكذا

---

(١) سورة الأحزاب الآية « ٥٩ » .

(٢) سورة النور الآية « ٣١ » .

شأن المؤمن لا يتلكأُ في تنفيذِ أمر الله بل يسرع فيه طلباً لرضاه سبحانه وتعالى والفوز بما عنده ، وذكر ابن جرير الطبري في تفسيره عن عبد الله بن عباس أنه قال أمر الله تعالى نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطينَ وجوههن من فوق بالجلابيب .

ولنستمع إلى خطبة الصحابية الجليلة أسماء بنتِ زيد بن السكن الأنصارية تصور لنا بها حالة المرأة المسلمة في العهد الإسلامي وما هي عليه من عفةٍ وصيانة وابتعاد عن مواطن التهم الشبهة والاختلاط . تقول هذه المرأة لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إني رسول من ورائي من جماعةِ نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي أن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فآمنّا بك واتبعناك ونحن معشرَ النساء مقصوراتٌ مخدراتٌ قواعدُ بيوتِ ومواضعُ شهوات الرجالِ وحاملاتُ أولادِهم وإن الرجّال فُضلوا بالجمعات وشهودِ الجنائزِ والجهادِ وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربّينا أولادهم أفنشاركم في الأجرِ يا رسول الله ؟ فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : ما سمعنا والله يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : انصرفي يا أسماء وأعلِمي من وراءَك من النساء أن حسنَ تبعل إحداكن لزوجِها وطلبها لمرضاتِه واتباعِه لموافقته يعدل كل ما ذكرتِ للرجال ، فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ . رواها ابن عبد البر في الاستيعاب .

وقد عين ﷺ يوماً خاصاً للنساء يعلمهن فيه مع شرف المكان وطهارة النفوس وشرف القصد وهو العلم والإرشاد . كل ذلك لوضع الخطوط العظيمة المنهجية في هذا الباب وخصوصاً في التربية وما يتعلق باختلاط الجنسين في المدارس الإبتدائية أو غيرها .

وسنتحدث إن شاء الله تعالى في حلقة خاصة عن الإختلاط ومفاسده لنقف على مفهوم ديني صحيح في هذا المجال .

مفهوم الغيرة باعتبار الإسلام

الغيرةُ على الأهلِ والمحارم من النساء خلق محمود وأمر مطلوب شرعاً وعقلاً ولكن بعضَ الناس ممن يُنسب إلى الثقافةِ والتقدم يخطيء في فهم هذا الخلق الكريم فيرى أن غَيرَةَ الرجل على المرأة من الجهل والحَمَق والعصبيةِ التي تتنافى مع العلم والإنسانية والثقة ، وأنها ظنون وهمية ووساوس شيطانية . وهذا التصور الفاسد والفهم الخاطىء إنما هو في الحقيقة تأثر بأخلاق الغرب المنحطة لأن أوروبا لم تقدس العفةَ في يوم من الأيام بل لم تحافظ على الطهر العذري وحسبنا المقياس الخلقي في موقفهم من المرأة أن لا نجدَ في لغتهم كلمةً تعبرُ عن كرامةِ المحافظة والإستقامة في السلوكِ الجنسي أعني كلمة العرض هذه الكلمة الجامعة لمعاني الفضيلةِ الجنسيةِ وحميةِ المؤمن في الغيرةِ عليه والدفاعِ عنه بل إن الأوروبيين يستهجنون هذه المعاني ولا يستسيغونها .

قال الدكتور نور الدين عتر في كتابه « ماذا عن المرأة » ص

١٤ : وقد اطلعت على قصص ومسرحيات لأدبائهم تندد بهذه الفطرة الإنسانية العالية وتحاربها بمختلف الأساليب وهي مجموعة من المسرحيات لكتاب فرنسيين ترجمها بعضُ أدبائنا تدورُ محاورُها على أبطال مزعومين من العرب وتصورهم أشخاصاً أعمتهم الغيْرة عن كلِ منطق وكلِ تفكير فإذا هم يخضعون للوسواس والأوهام ويرتكبون ألوان الإجرام ثم ينتحر الواحد منهم فراراً من ذلك الجحيم .

أجل هذا ما يختاره لنا أمثال هذا المترجم من الأدب الأجنبي وهذا ما يقدمونه لِأمتهم من حضارة الدول الأجنبية إنهم يقدمون لها ما يريده لها عدوها من ألوان الأدب والحضارة ، أدبِ البيوت الحمراء الفاجرة وسفاهةِ الإباحية المخربة المؤدية بالإنسان السامي إلى مستوى الحيوانية السافلة .

إن الغيرة على حرمةِ العفة ركنُ العروبة وقِوام أخلاقها في الإسلامِ والجاهلية لأنها طبيعةَ الفطرةِ البشرية الصافيةِ النقية والنفسِ الحرة الأبية ، فهذا عنترة أحد شعراء الجاهلية يفتخر بهذا الخلقِ الكريم والفضيلةِ المحمودة وأنه لما استقرَّ في نفسه وذاق معناه صارَ يغارُ حتى على عرض جيرانه من هوى نفسِه ذاتِه يقول عنترة :

وأغـض طـرفـي إن بـدت لي جـارتـي
حـتـى يـواري جـارتـي مـأواهـا

ويقول حاتم الطائي :

إذا ما بت أختلُ عرس جاري ليخفيني الظلامُ فلا خَفيت

أأفضح جارتي، وأخون جاري فلا والله أفعل ما حَيِيت

فهؤلاء الذين اختلت فيهم هذه الفضيلةُ العربية الإسلامية لا شك أنهم فقدوا جنسيتَهم العربية إذْ مُسخت نفوسُهم وطبائعُهم وفقدوا صفتَهم كمواطنين صالحين وخسروا ركناً إيمانياً وجوهراً إسلامياً عظيماً وما أفادوا الأمة والمجتمع إلا بسعيهم في إفسادِه والقضاء على خـلق كريم عريقٍ فيه والغيرةُ المحمودة المطلوبة هي صونُ المرأة عن التبدلِ واختلاطِها بالرجال وعن كل مُحرَّم وشَين وعارٍ ذميم، والحرصُ على أن لا يطّلع عليها ولا على غيرها من المحارِمِ أحد ممن لا يجوز له ذلك وهذه هي الغيرة التي يحبها اللّهُ ورسولُه والتي غرسها الإسلام في المسلمين وربّاهم عليها ففي الحديث الصحيح المرفوع : (أتعجبون من غَيْرة سعد لأنا أغير والله أغير مني) رواه البخاري .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما من أحدٍ أغير من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش) رواه البخاري في كتاب النكاح .

وفي الحديث قال ﷺ : (يا أمة محمد ما من أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزني ، يا أمّةَ محمد ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً) . رواه البخاري .

وثبت في الحديث المرفوع : (إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمنُ ما حرَّم الله) رواه البخاري .

وفي الحديث الوارد في الديّوث فاقدِ النخوة الذي يرى السوء عَلى أهله ولا تثورُ غيرته أنه لا يدخل الجنة (ثلاثة قد حرم الله

عليهم الجنة مدمنُ خمر والعاقُ لوالديه والديوث الذي يقر الخبث في أهله) رواه أحمد. بل إن الدفاع عن العرضِ جهاد يبذُل من أجلهِ الدم كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ : (من قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد) رواه أبو داود .

وإذا كان هناك من يتهاونُ في أمرِ الغيرة لجهلِهِم أو خطئِهم في معرفة فوائدها وإدراك ثمرتها فإن هناك أيضاً من يسيء استعمالَها لدرجةٍ تصل إلى اتهامِه أهلَه من غير رِيبة وإكثارِ الإنكار عليهم في كل أفعالِهم وقد جاء في بعض الآثار أن داود قال لإبنه سليمان عليهما السلام : (يا بني ، لا تكثر الغيرةَ على أهلك من غير رِيبة فترمي - أي هي - بالشرِّ من أجلكِ وإن كانت بريئة) .

قلت : مقصوده أن الرجل إذا اشتهرَ عنه كثرةُ إنكاره واتهامِهِ ومراقبتِهِ لأهله على طريقةٍ غير مألوفة عند أهل الذوق السليم ، فإن الفسَّاقَ وأهلَ الفجور يقولون لولا أنه يعلم منها المكروه لما أكثر الإنكارَ عليها .

وقد جاء في الحديث بيان معنى الغيرة والأمر بالإعتدال فيها على وجه مضبوط سليم يحفظ الأعراض ويأتي بالمقصود دون انتقاض لكرامة أو إشاعة لفتنة .

قال ﷺ مبيناً هذا المعنى : (إن من الغيرةِ ما يحبُ الله ومنها ما يبغض الله ، فأما التي يحبُ اللَّهُ عز وجل فالغيرةُ في الريبة وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب الخيلاء في الحرب. ورواه ابن ماجه في النكاح باب الغيرة.

تنظيم الشريعة الإسلامية للصلة الزوجية

(١)

المؤسسة العائلية لن تستغني عن رئيس مسؤول عن رعايتها وحسن الانتظام فيها وقيّم يرجع إليه أفراد هذه العائلة في أمورهم ينصح ويشير ويوجه وأحياناً يزجر وينهي ، وإذا اقتضى الأمر يضرب ، يعاتب هذا ويجبر خاطر هذا ويصلح فساد هذا ويطعم وينفق . وهذه الرئاسة أو القوامة ضرورة تقضي بها سنة الله في الحياة وتلك الضرورة حاجة كل مؤسسة تنتظم من أفراد وتتجسد هذه الضرورة في مواطن كثيرة متعددة تبدأ بجماعة صغيرة مكونة من ثلاثة نفر يخرجون في سفر . فإنهم لا بد أن يؤمروا عليهم أميراً كما جاء في الحديث ، وتنتهي بدولة تشمل من المصالح والوظائف والدوائر المتنوعة المختلفة ما لا يخفى وبغير هذا يختل النظام وتنفصم العروة وتسود الفوضى .

ويتحدث القرآن عن شخصية رئيس العائلة الذي شأنه أن يتحمل هذه المسؤولية في منطق سديد وحجة قاطعة فيقول :[١]

---

(١)سورة النساء الآية « ٣٤ » .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلى النِّسَاءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ ﴾ .

فالرجل يتحمل مسئولية القوامة البيتية لما يتمتع به من المزايا التي يفوق فيها المرأة وذلك لأنه : أولاً : أفضل منها . وثانياً : هو المنفق عليها . وهاتان النقطتان صرحت بهما الآية فجعلت السبب في اختيار الرجل رئيساً مسئولاً عن العائلة هو كونه أفضل منها وكونه المنفق عليها .

والآية لم تحدد أنواع درجات هذا التفضيل وحقيقته . وإذا قارنّا بين الرجل والمرأة وجدنا أن هناك بعض المزايا التي يغلب انفراد الرجال بها واختصاصهم عن النساء بها . فتكون سبباً من أسباب هذا التفضيل .

أولاً : الرجل أقوى من المرأة وأجلد منها في خوض معركة الحياة وتحمل مسئولياتها . فالمشاريع الكبيرة يديرها الرجال، والمعارك الحربية يقودها الرجال ، ورئاسة الدوائر العليا يضطلع بها الرجال ذلك لأن الله أفضل الرجال على النساء في أصل الخلقة وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة .

ثانياً : زيادة عقل الرجل ودينه على المرأة بنص الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبّ من إحداكن) أخرجه أبو داود . وفي رواية البخاري (أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)

ثالثاً : نقصان شهادة المرأة ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد . قال تعالى :(١) ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ .

رابعاً : عدم مطالبتها بشهود الجماعات بدليل قول النبي ﷺ (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها) . أخرجه أبو داود ، وفي رواية أحمد والطبراني (وصلاتُكِ في دارِك خير من صلاتِكِ في مسجد قومك) .

خامساً : عدم وجوب الجمعة على المرأة بدليل قول النبي ﷺ (الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة ، عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض) أخرجه أبو داود .

سادساً : أن الرجل يجوز له أن يتزوج بأربعة نسوة مع شرط العدل بينهن بخلاف المرأة فلا يجوز لها إلا زوج واحد .

سابعاً : أن نصيبه في الميراث أعظم من نصيبها بدليل قول الله تعالى :(٢) ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ .

ثامناً : أن الرجل له التعصيب في الميراث أما النساء فليس فيهن معصب استقلالاً .

تاسعاً : أن الطلاق بيد الرجل .

عاشراً : وكذلك النكاح والرجعة .

---

(١) سورة البقرة الآية « ٢٨٢ » .

(٢) سورة النساء الآية « ١١ » .

الحادي عشر : لا يجوز للمرأة أن تسافر وحدها بدون محرم.
فكل هذا يدل على فضل الرجال على النساء وهذا التفضيل إنما هو للجنس على الجنس لا لجميع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء وهذه القوامة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للرجل تقتضي أموراً كثيرة واجبة ومندوبة ينبغي للمرأة أن تلتزمها وتلاحظها وتقتضي أموراً محرمة ومكروهة يطلب منها أن تَجْتَنبها وتحذرها وسنذكر إن شاء الله شيئاً مما يوضح هذه القاعدة فلا يجوز أن تخرج المرأة من بيت زوجها إلا إذا أذن لها صراحة .

وقد روى ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت النبي ﷺ عن حق الزوج فذكر لها جملة من الحقوق وقال : (وإن خرجتْ من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب) أخرجه البيهقي .

وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في الأسفل فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن في النزول إلى أبيها فقال أطيعي زوجك فمات فاستأمرتْه فقال : أطيعي زوجك فدفن أبوها فأرسل لها النبي ﷺ يخبرها أن الله غفر لأبيها بطاعتها لزوجها . أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف .

أما إذا لم يأذن لها في الخروج صراحة ولم يرض لها فإنه يتعين عليها وجوباً أن لا تخرج وأن تطيعه فيما نهى عنه وحذر منه .

فإذا التزمت ذلك كانت من الزوجات الصالحات القانتات

اللواتي مدحهن الله تعالى في كتابه وجعل لهن بطاعتهن الجنة ثواباً وجزاء .

قال ﷺ : (أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه .

- تنظيم الشريعة الإسلامية للصلة الزوجية -

- ٢ -

مما تقتضيه مسألة قوامة الرجل على المرأة .

أن تعمل جهدها على الخدمة في الدار فتنشط إلى العمل كي تبقى لها صحتها وتحفظ قوتها فإن العمل ينفي عن صاحبه الأمراض والأدواء عليها أن تكنس وتغسل وتطبخ وتهتم بتدبير المنزل فإنها ربته وصاحبته ولتكون قدوة حسنة لبناتها يتخلقن بعلو الهمة ومضاء العزم . وقد اختلف العلماء في حكم الخدمة في البيت فقال أكثرهم : إنها متطوعة بها وجنح بعضهم إلى أنها واجبة عليها ديانة فيما بينها وبين الله لا قضاءً فليس للقاضي أن يجبرها عليها وهذا الوجوب الدياني إذا كانت ممن تخدم نفسها وتقدر على هذه الخدمة وهي بكل حال مثابة عليها مهما صلحت نيتها - لكن في سيرة نساء الصحابة - رضي الله عنهم - ونساء السلف الصالح نماذج طيبة صالحة لما ينبغي أن تكون عليه ربة البيت من اجتهاد ورعاية وعناية تامة بالمنزل وما يتعلق به .

فهذه السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - تخبر عن حالها في بيتها مع زوجها فتقول : تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا شيء غير فرسه وناضحه - أي بعيره الذي يستقي عليه - فكنت أعلف فرسه وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأستقي الماء وأخرز غربه أي أضبط دلوه بالخرز وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ وهي نحو مشي ساعة تقريباً حتى أرسل إليّ

أبو بكر بخادم يكفيني سياسة الفرس كأنما أعتقني الحديث أخرجه البخاري ومسلم .

فهذه أسماء ذات النطاقين بنت الصديق الأكبر جدها الصحابي « أبو قحافة » وأبوها الصحابي أفضل الصحابة أبو بكر ، وأختها أم المؤمنين وأمها ، وزوجها الزبير وإبنها عبدالله بن الزبير كلهم من أجلة وأئمة الصحابة ومع هذا كله لم تأنف من خدمته .

وهذه السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ تخبر أيضاً عن حالها في بيتها مع زوجها وكيف كانت تتحمل في سبيل هذا البيت والزوج ما أتعبها وأنهك جسمها وأثّر في يدها لقد انتقلت من دار أبيها حيث الراحة والسكون وعدم الاهتمام بشيء من أمور الحياة الزوجية والخلو عن أي مطالبة أو سؤال إلى دار زوجها حيث المسئولية الزوجية والاهتمام برعاية البيت فتقلدت منصباً جديداً وواجهت مهمة لا عهد لها بها . ولكنها وهي العاقلة الحكيمة بضعة النبوة ومعدن الرسالة ومنبع الجود والكرم ومحل الاحتمال والصبر قامت بذلك خير قيام وأحكمته كل الإحكام وأدته على وجهه المطلوب بالتمام فأثّر ذلك عليها كل التأثير وأنهك جسمها وأضرَّ بها حتى حزن عليها الإمام علي « زوجها » وتأثر من تأثرها . وهكذا الرجل الوفي الصالح يشارك زوجته في حزنها وسرورها وصحتها ومرضها ويهتم لذلك إهتماماً بالغاً فقال لها : لقد كسر ظهري حالك وقطع قلبي ما أراك فيه من تعب ونصب ومرض فاذهبي إلى أبيك رسول الله ﷺ فاطلبي منه خادماً لتخدم عندنا وتتحمل عنك بعض مطالب الدار . فذهبت السيدة فاطمة مطيعة لزوجها الذي ترفق

بحالها فلما دخلت عليه غلبت عليها في ذلك الموقف هيبة النبوة على دلال الأبوة فاستحيت أن تسأله فلما قال لها : ما جاء بك يا بنية قالت : جئت لأسلم عليك ورجعت وأخبرت زوجها علياً بما حدث . ولكن ما رآه وعرفه من حالها لم يتركه يستسلم لتلك النتيجة والجواب بل شجعه وزاد في همته وعزيمته فدخل بنفسه في الموضوع وذهب معها مرة ثانية إلى رسول الله ﷺ فأتياه جميعاً وتكلم علي - رضي الله عنه - فذكر له حالهما وشرح أيضاً بالخصوص حال إبنته السيدة فاطمة فقال ﷺ وهو الذي يستوي عنده الجميع في العدل والقسمة وهو الذي جعله الله تعالى أباً لجميع المؤمنين وجعله أولى بهم من أنفسهم يقول ﷺ له : لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم فرجعا وقد تكدر منهما الخاطر وانكسرت النفس وازداد عليهما الحزن وأدرك هذا ﷺ فقام في أثرهما حتى دخل عليهما فوجدهما قد استلقيا على فراشهما يقتلان حزنهما بالنوم ويتسليان به عما أصابهما وجدهما قد دخلا في قطيفتهما إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما انكشف رأسهما « فثارا » أي هبا من فراشهما احتراماً لمن دخل عليهما فقال ﷺ مكانكما ألا أخبركما بخير مما سألتماني ؟ فقالا : بلى ، فقال : كلمات علمنيهن جبريل . تسبحان في دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين وتكبران أربعاً وثلاثين قال علي : فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ .

هذا حال فاطمة الزهراء بنت إمام المتقين رسول الله ﷺ التي يقول فيها ﷺ : فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويريبني ما يريبها رواه الشيخان . والتي يقول لها : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ، فما أحرى نساءنا بالاقتداء بهذه السيرة العطرة والخلق الزكي الزاكي .

تنظيم صلة الزوجين

٣

لقد نظم الإسلام الصلة الزوجية ، فجعل قوامة المنزل بيد الرجل ومما تقتضيه مسألة قوامة الرجل على المرأة .

أن تطيعه في كل ما يأمرها به ما لم يكن معصية لله تعالى فلا تطيعه فيه إذ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف) .

قال ﷺ (إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها)أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة ، وأخرج البزار والطبراني أن امرأة قالت : يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ثم ذكرت ما للرجال في الجهاد من الأجر والغنيمة ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟ فقال ﷺ : أبلغي من لقيت من النساء إن طاعة الزوج والاعتراف بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله وأخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال : لما قدم معاذ بن جبل - رضي الله عنه - من الشام وكان قد رآهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم أراد أن يفعل مثل ذلك برسول الله ﷺ فنهاه وقال له : لا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها .

هذا مع ما تجلب الطاعة للزوجة من زيادة المحبة ورفيع المنزلة وتحقق لهما جميعاً سعادة وطمأنينة ، ويكون من آثارها أن

يقتدي الأولاد بأمهم فينشأوا متمرنين على طاعة الأبوين قابلي توجيهاتهما .

بل إن الزوج نفسه يطيع امرأته ويحقق لها رغباتها المشروعة إذا رآها تطيعه وهذه من الفوائد العظيمة والمكاسب الزوجية النافعة التي تسجلها المرأة وترى ثمارها فيما بعد حياة سعيدة طيبة خالية من النكد والتعب مع ما يستفيده من الثواب والفضل من الله تعالى وكثيراً ما رأينا من المشاكل التي تحدث بسبب العناد والمعصية أن المرأة التي تحب أن تحافظ على بيتها وزوجها ، عليها أن لا تنازعه الرأي في كل صغيرة وكبيرة ، ولو كانت تعتقد أن الصواب في جانبها ما لم يكن في الأمر محذور شرعي .

إن تسليم المرأة لرأي زوجها في الأمور العادية غير الآثام خير وأفضل وكثيراً ما ينشأ عن الاختلاف في الرأي منازعات وحوادث واضطراب في الحياة الغالية قد تفضي إلى حَلِّ عقدة النكاح والعياذ بالله تعالى ، وفيه جناية على نفسها وزوجها وأولادهما ، وفيه ما فيه من الكراهية الشرعية فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى .

إن المرأة العاقلة قد تتوصل إلى أن يستجيب لها زوجها ويعمل برأيها إذا طرحت العناد وسايرته بلطف ورفق وهذه الطاعة تتجلى في كثير من الأمور والأحوال الزوجية خصوصاً إذا طلب الإتصال بها فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأة إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح . رواه البخاري وأبو داود.

وفي رواية مسلم : والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها . وفيه دليل على أن سخط الزوج يوجب سخط الرب ورضاه يوجب رضاه وروى ابن حبان وابن خزيمة : ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق ، وفيه : والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى عنها . والفراش كناية عن الجماع ومحل اللعن إذا لم يكن هناك عذر شرعي . وسببه أنها كانت مأمورة إلى طاعة زوجها في غيرّ معصية ، قيل : والحيض ليس بعذر في الامتناع لأن له حقا في الاستمتاع بما فوق الإزار عند الجمهور وبما عدا الفرج عند جماعة ويستمر هذا اللعن والغضب حتى الصباح إن كان ذلك حصل في الليل ، وإن حصل في النهار فيستمر اللعن والغضب أيضاً حتى المساء والعياذ بالله .

وفي حديث أبي أوفى : والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه . رواه أحمد في مسنده وابن ماجه وتشمل هذه الطاعة أيضاً « الصوم نفلا » فقد قال جمهور الفقهاء : يحرم عليها أن تصوم نفلاً إلا بإذنه فإن فعلت دون استئذانه وكان حاضراً غير مسافر كان حظها من صومها جوعها وعطشها مع الإثم وعدم القبول . ولزوجها الحق في أن يفطرها إن لم تستأذنه . بل يرى الفقهاء أن صومها نفلاً دون استئذانه لا يصح ولا ينعقد أصلاً . والأصح أنه يصح مع الإثم . أما صوم الفريضة كرمضان فلا يحتاج إلى إذن . وفي حديث الخثعمية التي سألت النبي ﷺ عن حقوق الزوج فأخبرها بجملة منها

وقال : ومن حقه أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها أخرجه البيهقي عن ابن عمر .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه . رواه البخاري .

وفي الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : ومن حق الزوج على زوجته أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه فإن فعلت لم يقبل منها .

وسبب هذا النهي والتحريم أن للزوج حق الاستمتاع بها في كل وقت وحقه واجب على الفور فلا تفوته بالتطوع .

موت الرجولة فقدان للغيرة

إن أعز ما لدى الإنسان بعد دينه هو عرضه ، بل إن عرضه جزء دينه ، والمحافظة على العرض من أهم دعائم الدين ، والغيرة عليه من أهم علامات الإيمان ، ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ من أشد الناس غيرة على أعراضهم ويدل على ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه : إن دخل أحدكم على أهله ووجد ما يريبه أشهد أربعاً ، فقام سعد بن معاذ متأثراً وقال : يا رسول الله أأدخل على أهلي فأجد ما يريبني ، أنتظر حتى أشهد أربعاً لا ، والذي بعثك بالحق إن رأيت مما يريبني في أهلي لأطيحن بالرأس عن الجسد وليفعل الله بي بعد ذلك ما يشاء فلم ينكر عليه الرسول ثورته من أجل عرضه ، بل تبسم وقال : إن سعد ليغار وإني لأغير من سعد وإن الله لأغير من الجميع ، وغيرة الله أن تؤتى محارمه ، ولقد صدق الشاعر الحكيم حيث يقول :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فإذا علمت ذلك أيها الأخ المسلم ، وكنت ذا غيرة على دينك

وعرضك هان عليك أن تفتديهما بروحك ودمك قبل جاهك ومالك وولدك ، فإن للعرض قداسة ، من حرمها فقد حرم الحياة الشريفة ، ومن حرم شرف الحياة فهو أخسر من الحيوانات وإذا عز عليك عرضك إلى هذا الحد فلتكن لأعراض المسلمين نفس القداسة التي أصبحت لعرضك في نفسك ، فإنها جميعاً تتكافأ مع عرضك ، فافدها بما تفتدي عرضك وعليك أن تدفع عنها أولئك الأنذال الذين يسطون على أعراض الناس فينتهكون حرمتها ويدوسون كرامتها ، ويدنسون شرفها والذي يطمعهم في أعراض الناس وحرماتهم أمور :

الأول : تهاون أصحاب الأعراض في المحافظة على أعراضهم إما بفقدان الغيرة من نفوسهم أو بضعف العزيمة في قلوبهم أو تساهلهم في العناية بالتربية الدينية التي تعتبر السياج الأول للمحافظة على الأعراض ، أو بسماحهم لنسائهم وبناتهم بالخروج في تبرج وسفور مما يطمع فيهن الرجال والشبان ، ومما يسهل للذئاب طريق السطو على أعراضهن .

الثاني : مظاهر الميوعة والمجون التي تظهر على النساء والفتيات في لبسهن وكلامهن حتى مشيتهن وتصرفاتهن ، ولذلك حرص الإسلام على أن تخفي المرأة كل ما يطمع فيهن الرجال يقول الله للنساء جميعاً في شخص نساء الرسول ﷺ[1] ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بالقَولِ فَيَطْمَعَ الذيْ في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَولاً مَعْرُوفاً ✽ وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب آية « ٣٢ - ٣٣ » .

ولذلك كان على المرأة المسلمة أن تغير صوتها الناعم إذا ما اضطرت إلى الكلام أمام الرجال ، لأن الأصوات الناعمة وسيلة إلى اجتذاب الرجال ولذلك يقولون : الأذن تعشق قبل العين أحياناً .

الثالث : الاختلاط الذي بدأ يفشو فشياً بين الجنسين وخصوصاً بين العائلات والأصدقاء باسم الزيارات العائلية وقد يصل الإختلاط إلى الخلوة بين الرجل والمرأة وهذه الخلوة أشد فتكاً بالأخلاق ولهذا يقول الرسول ﷺ (ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما) ويقول الله ناصحاً ومحذراً[1] ﴿ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّاً إلا أَنْ تَقُولوا قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ .

وإن هذا الإختلاط وتلك الخلوة ممنوعان قطعاً في الإسلام وخاصة إذا فقدت الرقابة ، رقابة الأهل ورقابة الضمير وهذا الاختلاط بكل صوره أصبح الآن نكبة النكبات وأصبح المنكر له متهماً بالرجعية والتأخر وأنه ليس تقدمياً في عصره ، وبهذا ينطبق علينا قول الرسول في تنبؤته السابقة (كيف بكم إذا أمر بالمنكر ونهي عن المعروف) بل قال أكثر من هذا : (يأتي على الناس زمان تظهر فيه الفاحشة في الطرقات ، حتى يقول أحدهم لفاعلها لو تنحيت بها عن الطريق فذلك فيهم كأبي بكر وعمر) .

الرابع : فقدان التربية الدينية في الاسرة أو ضعفها فعلينا أن نعتني كثيراً بتربية أولادنا تربية دينية حقيقية نعدهم فيها لأن يكونوا لبنات صالحة لا في أنفسهم فقط بل في مجتمعهم أيضاً وأن نبين لهم في

---

(١) سورة البقرة الآية « ٢٣٥ » .

وضوح وجلاء أهمية العرض والشرف بالنسبة لهم وخاصة للنساء والفتيات وألّا نسمح لهم بالخروج متبرجات سافرات مهما كانت الدواعي وإن أغضبنا في ذلك كل الناس وخالفنا تقاليد المجتمع . وأنا أعلم أن هذه المخالفة للتقاليد هي العقبة التي تقف في سبيل الآباء عندما يريدون توجيه أبنائهم وبناتهم ولكن قوة العزيمة فينا واقتناعنا بما تدعو إليه ، وبسمو الهدف الذي نريد بلوغه كل ذلك يزيدنا استمساكاً بها مهما كانت العقبات ، ومهما كانت الصعاب.

وعلينا أن نقضي على مظاهر الميوعة والخلاعة التي يتسابق فيها النساء والفتيات ، وخاصة بين طالبات المدارس والجامعات كما نقضي على هذا الاختلاط الذي شاعت أساليبه بين الفتيان والفتيات ، إما بحجة الصداقة وإما بحجة تبادل الزيارات وإما بحجة الخطبة ، وإما بحجة التنزه والرياضة إلى غير ذلك ، وسنجد من يقف أمامنا حجر عثرة في سبيل تنفيذ هذا البرنامج الطاهر ، ولكن اقتناعنا بسمو فكرتنا واستعانتنا بربنا سيسهلان علينا كثيراً من هذه العقبات وتلك الصعاب .

واستمع معي أيها الأخ الكريم لبعض وسائل الإسلام في معالجة هذه الأدوار .

(١)﴿قُلْ للمُؤ مِنِيْنَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيْرٌ بما يَصْنَعُونَ * وَقُلْ للمُؤ مِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

(١) سورة النور الآية « ٣٠ - ٣١ » .

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَو آبائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أوأَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إخْوانِهِنَّ أو بَني إِخْوانِهِنَّ أو بَني أَخَواتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَو التَّابِعِيْنَ غَيْر أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِيْنَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِيْنَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلى اللَّهِ جَمِيْعَاً أَيُّه المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

(١)﴿ياأيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِيْنَ يُدْنِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيْماً ﴾ .

وتدبر معنى قوله تعالى في الآية الأولى ﴿ أو نِسَائِهِنَّ ﴾ لتفهم منها أن الله تبارك وتعالى لا يحل للمرأة المسلمة أن تظهر زينتها لامرأة غير مسلمة فإذا كان الله قد اعتز بعرض المؤمنة وزينتها إلى هذا الحد فما بال المرأة المؤمنة يبلغ بها استهتارها بعرضها وزينتها أن تكشفها حتى في الطرقات كأنها ملابس ومعروضات عامة لكل متفرج وطالب .

---

(١) سورة الأحزاب الآية « ٥٩ » .

فتن وبلايا اجتماعية نسأل الله الحماية منها

من الفتن التي بلينا بها خدمة الرجال في البيوت ، وخدمة الرجال في البيوت هي من الأخطار العظيمة على صاحبات البيوت إذا كان هناك اختلاط بينهم وبينهن ، خصوصاً إذا كان الرجل من الشبان ذوي الوجوه الوسيمة (وَهي فتنة كثير من الناس عنها غافلون) وإنما كان خطرها عظيماً لأن الخادم رجل ، وقد يكون أشب من سيده ، بل وقد يكون أجمل وهو ملازم البيت ليله ونهاره ثم هو تحت أمر سيدته ، كيف وهو خادم ؟ أضف إلى هذا أنها تستطيع طرده وتستطيع أن تبقيه بالمنزل يأكل ويشرب وينام ويتقاضى مرتباً شهرياً ، وهو يعرف ذلك حق المعرفة .

إذن يجوز أن يمر على خاطرها ما يمر من ناحية الخادم ويجوز أن تطيع هذا الخاطر وتسلك سبيله .

ولكثير من الناس شبهة سخيفة تسهل لهم استخدام الرجال هي أن السيدة رفيعة القدر جدًّا بالنسبة لخادمها فغير معقول أن تنزل

من ذلك المقام السامي إلى هذه الدرجة المنحطة ، إن قائل هذا لا يعرف أحكام الطبيعة الحيوانية في الإنسان ، ولو عرفها ما جرت بنفسه هذه الشبهة الدالة على بساطة كبيرة وغفلة عظيمة .

إن هذه الطبيعة لها قوة لا يطيق الإنسان حملاتها كما قلنا مراراً فإذا حملت ينهزم أمامها الإنسان لا يفكر في سيادة ولا شرف ولا وقار ولا علم ولا دين ولا رب ولا ثواب ولا عقاب ، بل ولا موت ولا فضيحة وهل تقدم المرأة أو الرجل على هذه الداهية وفيهما عقل يقدر عواقب الأمور الدنيوية أو الأخروية ؟!

ولو أن الناس تأملوا في قصة سيدنا يوسف ﷺ لفهموا أن القرآن لم يذكرها إلا عبرة ليحترس الرجال على نسائهم من الخدم .

إن امرأة العزيز كانت ذات مركز عظيم في مصر ، وكان سيدنا يوسف ﷺ في بيتها كخادم لها ومع ذلك لم تسأل عن شرفها ولا شرف زوجها ، بل داستهما بنعل الشهوة دوساً ولم تتوقف في بذل كل ما تستطيع من قوة وحيلة لإخضاعه عليه الصلاة والسلام ولولا أنه ﷺ من ذوي العصمة لوصلت إلى ما تريد وإني أظن أن هذه الشبهة لم يبق لها أثر عند أولئك المساكين بعد هذا البيان ، ولعلهم بعد هذا الإقتناع يطردون أولئك الرجال طرداً من بيوتهم ولا يعودون لاستخدامهم أو يستخدموهم خارج المنازل ولا يسمحون لهم بلقاء السيدات بحال .

ومن الفتن التي بلينا بها ـ تأخير زواج البنت أو الشاب بعد بلوغ سن التكليف مما أدى إلى ركود سوق الزواج ، نعم ركدت

سوق الزواج اليوم ركوداً يفزع ويخيف . حتى أننا لنرى الشاب أو الشابة في العواصم قد بلغ أو بلغت الأربعين سنة فما فوق وقد يموت أو تموت وما رآى أو رأت الزواج ، ومن هذا كثرت البلايا بيننا والفتن .

ومن الأسباب القوية في هذا التأخير تغالينا في المهور ومبالغاتنا في الجهاز ، فكثير من الشبان لا يمنعهم من التقدم إلى هذا الزواج إلا عجزهم عن مبلغ المهر ، وكثير من آباء البنات لا يقبلون خطبة بناتهم ولا تزويجهن لأنهم لا يقدرون على تجهيزهن التجهيز الذي جرى به العرف فإنهم لا يجهزونهن ذلك التجهيز إلا إذا أضافوا على المهر أضعاف أضعافه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن الفتن التي بلينا بها اليوم ما نراه من تهاون وإهمال في ذهاب المرأة إلى الطبيب بدون محرم اعتماداً على الثقة المكذوبة المزعومة وكأن الطبيب معصوم محفوظ أو بليد الإحساس ناقص الرجولة جامد الطبع ، وقد تذهب إلى الطبيب ومعها محرم من زوج أو أخ أو أب ، وعند إرادة كشفه عليها تدخل عنده وحدها ، وعادة الأطباء أن لا يدخل عليهم في غرفتهم الخاصة أحد أبداً ـ ذلك تنبيههم المشدد ـ فإذا وصلت لغرفته المرأة كانت هي وهو خاليين ليس معهما أحد يطلع على ما يكون .

ومن المعلوم في الإسلام أن الخلوة بالمرأة الأجنبية حرام ، قال ﷺ : (إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحمو؟ قال : الحمو الموت) رواه البخاري ومسلم

والترمذي ، الحمو : قريب الزوج ، وفي معناه قريب الزوجة .

فمن المنكر الذي لا يجوز السكوت عليه خلوة الطبيب بالمرأة على النحو الموجود الآن .

وقد علمنا أن نساء لا يذهبن للأطباء إلا للأغراض الفاحشة والطبيب ليس معصوماً بل هو بشر يهيج بالمهيجات ، وأكبر مهيج للرجل المرأة الجميلة تنكشف له في خلوة ويضع يده على جسدها باسم البحث الطبي وتشخيص الداء ، ووالله إن موتها ودفنها ومحوها من الوجود نهائياً خير مما يفعله الطبيب بها من ذلك المنكر الذي ليس وراءه إلا النار ، فليتق الله الرجال في نسائهم ولا يسمحوا لهن بالدخول على الأطباء إلا وهم معهن .

ومن الفتن التي من هذا الباب ما نراه اليوم من تهتك النساء في خروجهن إلى الشوارع ودخولهن إلى الحوانيت ولا تسأل عما يجري في داخل الدكان من مغازلة ومحادثة تحت ستار البيع والشراء والسلعة هي العرض[1] ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ فأين الرجال وأين نخوتهم وأين مروءتهم ؟ .

---

(١) سورة النور الآية « ١٦ » .

التحذير من إشاعة الأخبار الكاذبة السيئة

يقول الله تعالى[1] ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ في ذلك القول الكريم ، ينهى الله سبحانه وتعالى أن يتبع المرء ما ليس له به علم من أمور الدين والدنيا فإن ذلك يؤدي إلى التخبط والضلال، ويعلن تبارك وتعالى أن المرء مسؤول عما يفعله بالسمع والبصر والفؤاد .

أيها المسلمون : من الأخبار التي تشاع ما هو صدق ومنها ما هو كذب فنهانا الله تعالى عن الأخذ بما لم تعلم صدقه منها مما ظنناه أو توهمناه أو سمعناه من غير أن نتحراه وفي ذلك دعوة إلى تحري صدق الأخبار من كذبها وما أشد الحاجة إلى اتباع ذلك السبيل القويم الذي فيه سعدنا وعزنا وخيرنا وأمننا فكم من خير كاذب جرت إشاعته أسوأ العواقب .

ترى الأسرة آمنة هادئة مطمئنة هانئة فيشاع أن أحد أبنائها قتلته

---

(١) سورة الإسراء الآية « ٣٦ » .

أسرة أخرى أو أحد أفرادها فتحمل السلاح وتزهق الأرواح وتخل الأمن وتشيع الذعر بين الناس فيساق أفرادها إلى السجون ويذوقون عذاب الهون[1] ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ويشيع أن صنف كذاسيغلو ثمنه أو سيقل فيتزاحم الناس على ادخاره وفي التزاحم المشقة والعناء وربما كان في ذلك الادخار الشر وعظيم البلاء . ووقع في غزوة أحد أن أكثر الرماة الذين كانوا يدفعون عن المسلمين تركوا أماكنهم ، سعياً وراء الغنيمة فاشتد القتال بين المسلمين وبين المشركين وأشاع كاذب أن رسول الله ﷺ قتل فأصاب المسلمين فزع وهلع وولى بعضهم الأدبار ولكن الله تداركهم بلطفه فأراهم النبي ﷺ وهو يناديهم إليّ عباد الله فأجابوا النداء وأسرعوا إليه باذلين أرواحهم فداء لإمام الأنبياء وفي تلك الحادثة يقول الله تعالى[2] ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذْ فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ على المُؤْمِنِيْنَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ على أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ في أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا على مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيْرٌ بِما تَعْمَلُونَ ﴾ وكم من فتاة أخرت زواجها إشاعةً لخبر كاذب يشينها وكم من ضحية للمحتالين الدجالين من أجل إشاعة نفعهم كذباً وزوراً .

وليس بخافٍ الضعف والخوف والاضطراب وبلبلة الأفكار مما

---

(١) سورة آل عمران الآية « ١١٧ » .

(٢) سورة آل عمران الآية « ١٥٢ » .

ينشر الصحفي من باطل الأخبار وما يشيع المعرض من تهم عن الرجال والنساء ومن أخبار كاذبة تضر سلامة الدولة أو قوتها أمام الأعداء فضرر إشاعة الأخبار الكاذبة السيئة خطير وشرها مستطير ولذلك جاء القرآن الكريم بتهديد الله تعالى ووعيده الشديد وذمه للمرجفين في المدينة ومشيعي أخبار السوء بها كما جاء بذلك للمنافقين ومرضى القلوب قالها الله تعالى :[1] ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ في المَدِيْنَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيْهَا إِلَّا قَلِيْلاً * مَلْعُونِيْنَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيْلاً * سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذِيْنَ خَلَوا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيْلاً﴾ .

وأقبح الإشاعات ، إشاعة تمس العرض وتخدش الكرامة وتجرح الشرف ولذلك عقاب مرتكبها شديد . قال الله تعالى[2] : ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيْعَ الفَاحِشَةُ في الَّذِيْنَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمونَ﴾ إلاّ أن الحقائق المفيدة هي التي يجب أن تظهر وتشيع والأخبار الكاذبة يجب أن تنبذ وتخفي ، والعاقل السعيد يراقب مولاه مراقبة من يعتقد أنه يسمعه ويراه فيتحرى الصدق ولا يخبر بغير تثبت وتحقق فيسلم من الشر ويفوز بالخير .

أيها المسلمون : لا تخبروا بغير الصدق ولا تخبروا بغير تحقق ولا تستمعوا للإشاعات وانبذوها واحذروا أن تروجوها[3] ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة الأحزاب الآية « ٦٠ - ٦٢ » .

(٢) سورة النور الآية « ١٩ » .

(٣) سورة الأحزاب الآية « ٧٠ » .

الَّذِيْنَ آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيْداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيْماً ﴾ روى البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : (الصلاة على ميقاتها) فقلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : (أن يسلم الناس من لسانك) .

تنوع أبواب الخير وأوجه البر

عن أبي ذر جُندب بن جُنادة قال : قلت يا رسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، قلت : أي الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً أو تصنع لأخرق . قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك . متفق عليه « الصانع » بالصاد المهملة هذا هو المشهور ، وروي ضائعاً بالمعجمة أي ذا ضياعٍ من فقرٍ أو عيال أو نحو ذلك والأخرق الذي لا يتقن ما يحاول فعلَه .

فهذا الحديث الشريف يوضح لنا سبل الخير والهدى ويبين أن أبواب البر واسعة وطرقه متعددة ليست محصورة في نوع ولا مقيدة بكيفية . فالإيمان والجهاد من أوجه الخير وعتق الرقاب من أوجه الخير ، وإعانة المحتاج من أوجه الخير ، فإن عجز عن كل ذلك فليتصدق على نفسه وذلك بأن يكف شره عن الناس .

وقد جاء في الحديث أن التسبيحة صدقة والتحميدة صدقة

والتهليلة صدقة والأمر بالمعروف صدقة والنهي عن المنكر صدقة وأن الركعتين يركعهما من الضحى صدقة .

ومن أوجه البر والإحسان إماطة الأذى عن الطريق وهذا من الأعمال التي عرضت على نبينا ﷺ وهو من محاسن أعمال الأمة .

بل ومن أوجه الخير والإحسان إتيان الرجل أهله فهي صدقة ففي الحديث وفي بضع أحدكم صدقة . ولما قال ذلك المصطفى ﷺ تعجب الصحابة الكرام وقالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر) رواه مسلم .

ولا تحصل هذه الصدقة إلا إذا قارنتها نية صحيحة كإعفاف نفسه أو زوجته عن نحو نظر أو فكر أو همّ محرم ، أو قضاء حقها من معاشرتها بالمعروف المأمور به أو طلب ولد يوحد الله تعالى أو يتكثر به المسلمون، أو يكون له فرطاً إذا مات يصبره على مصيبته، فعلم أن في النية الصالحة ما يصير المباضعة صدقة على المسلمين باعتبار ما ينشأ عنها من وجود ولد صالح يحمي بيضة الإسلام أو يقوم ببيان العلوم الشرعية والأحكام .

ومن أوجه الخير أن تلقى أخاك بوجه طَليق ، أي بوجه ضاحك مستبشر، وذلك لما فيه من إيناس الأخ المؤمن ودفع الإيحاش عنه وجبر خاطره ، وبذلك يحصل التأليف المطلوب بين المؤمنين .

ومن أوجه الخير أن تجتهد في الإصلاح والتوفيق بين

متخاصمين . فذلك صدقة وأن تعينَ الرجل في دابته فتحمُله عليها أو ترفعُ له متاعه فذلك صدقة .

والكلمة الطيبة صدقة ، وكل معروف صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ومن أوجه الخير أن يغرس المسلم غَرْساً ويكرم به إخوانه وأحبابه بإطعامهم وإعطائهم فهو له صدقة ، بل ولو سُرق منه فهو له صدقة ، وكذا لو أكل منه إنسان بغير علمه فهو له صدقة ، حتى لو جاءت دابة أو طير فأكل منه كان ذلك له صدقة .

وكذلك تكون له شاة أو ناقة فيبح لبنها لأحبابه ، ويعطيهم ذلك فهو له صدقة واتباع الجنازة ورد السلام على المسلم وعيادة المريض وإرشاد الحائر إلى الطريق ، كل هذا من أوجه البروهو صدقة مقبولة إن شاء الله .

ومن أوجه الخير التي يستفيدها المسلم في خاصة نفسه إسباغ الوضوء على المكاره أي المشقة والألم والمراد به استيعاب أعضائه بالغسل والمسح مع استيفائه آدابه ومكملاتها .

وكثرة الخطا إلى المساجد ، ولذلك لما أراد بنو سلمة أن ينتقلوا قُربَ المسجد من منزلهم الذي كانوا به وكان بعيداً من المسجد النبوي فقال لهم ﷺ : إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد فقالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : (بني سلمة دياركم) أي يا بني سلمة الزموا دياركم (تكتبْ آثاركم) أي آثار أقدامكم وخطاكم إلى الجمعة والجماعة ، وفي رواية أنه قال لهم : إن بكل خطوة درجة .

يقول أبيّ بن كعب كان رجل لا أعلم أبعد منه من المسجد وكان لا تفوته صلاة فقيل له أو فقلت له : لو اشتريت حماراً تركبه في الليلة الظلماء وفي الرمضاء ، فقال : ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد لما يفوت بالقرب من أجر تعدد الخُطا المرتب على بعد الدار . وقال : إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي . فقال رسول الله ﷺ : (قد جمع الله لك ذلك كله) . وفي رواية إن لك ما احتسبت أي لك عند الله أجر ما عملته من تكثير الخطا في الذهاب إلى المسجد .

ومن أوجه الخير في هذا الباب انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وذلك بأن يجلس في المسجد أو في بيته أو سوقه أو شَغلته لانتظارها . وذلك لتعلق فكره وقلبه بها فهو دائم الحضور والمراقبة غير مُلته عنها . وذلك أي انتظار الصلاة والمشي إلى المسجد وإسباغ الوضوء هو الرِّباط ، والرباط الحقيقي هو ملازمة الثغر لحفظ عورة المسلمين ، واستحقت هذه الخصال إسم الرباط لما فيها من أعظم القهر لأعدى عدو الإنسان وهي نفسه الأمارة بالسوء ، وقمعْ شهواتها وقلع مكائد الشيطان من جميع أجزائها . فإن هذه الأعمال تسد طرق الشيطان والهوى عن النفس وتقهرها وتمنعها من قبول الوساوس والشهوات ، فكانت هي الرباط الحقيقي وهو الجهاد ، وفي هذا أعظم تأييد لخبر (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) أي من جهاد العدو إلى جهاد النفس ، إذ جهاد الكفار إنما شرع بالخروج عن النفس والأولاد والأموال لإعلاء كلمة الله تعالى مع تكميل النفس بخروجها عن مألوفاتها ومستلذاتها ، لكنه لا يدوم

زمنه بل يكون برهة وتنقضي ، وهذه الأعمال دائمة وذلكُ التكميل موجود فيها بزيادة .

ومن أوجه الخير الخاصة التي تعود بركاتها على المسلم المحافظة على أداء صلاة العصر والفجر فقد جاء في الحديث : (من صلى البَردَين دخل الجنة) . والبردان : العصروالصبح. ووجه تخصيصها بالذكر أن وقت الصبح يكون عند النوم ولذته ووقت العصر يكون عند الاشتغال بتتمات أعمال النهار وتجارته وتهيئة العشاء ، ففي صلاته لهما مع ذلك دليل على خلوص النفس من الكسل ومحبتها للعبادة ، ويلزم من ذلك إتيانه بجميع الصلوات الأخر ، وأنه إذا حافظ عليهما كان أشد محافظة على غيرهما ، فالاقتصار عليهما لما ذكر لا لإفادة أن من اقتصر عليهما بأن أتى بهما دون باقي الخمس يحصل له ذلك لأنه خلاف النصوص ، وقيل المراد بالبردين الصبح والعشاء . ووجه تخصيص العشاء أن في وقتها يكثر النعاس فيثقل البدن بواسطته مع الامتلاء بالعشاء فتتعطل الحركة فتشق الصلاة ، وأسبابها حينئذ مشقة ظاهرة ، فمن صلاها مع ذلك استحق دخول الجنة من غير سابقة عذاب .

كل معروف صدقة

ومن أوجه الخير التي تعود بركتها على المسلم أن يأكل الأكلة فيحمد الله عليها أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها ، فهذا مما يفوز به المسلمُ برضى الله سبحانه وتعالى .

ومن أوجه الخير أيضاً أن يعملَ بيده عملاً ينفع به نفسه ويتصدق على المحتاجين فقد قال المصطفى ﷺ : على كل مسلم صدقة . قال أبو موسى : أرأيتَ إن لم يجد ، قال : يعملُ بيديه فينفع نفسه ويتصدق . وفي هذا الحث على اكتساب ما تدعو إليه حاجة الإنسان من طعام وشراب وملبس ليصون به وجهه عن الغير .

ومن أوجه الخير الخاصةِ بالمسلم المحافظةُ على الصلواتِ الخمس وعلى أداء الجُمعات وصيام رمضان وإنهن تكفر ما يقع بينهن من الذنُوبِ الصغائر بشرط اجتناب الكبائر .

وهذه الأعمالُ بركتها باقية ومنفعتها مستمرةٌ دائمة ، لا ينقطعُ مددُها بمرضٍ ولا يتوقفُ ثوابها بعجزٍ لما جاء في الحديث عن النبي

ﷺ أنه قال إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً . رواه البخاري وعند أبي داود كأصلحِ ما كان يعمل وهو صحيح مقيم . وقد يعْملُ الرجلُ عملاً صغيراً من أعمالِ الخير ولكن يدرك به فضلاً كبيراً . ولذلك نهانا ﷺ أن نحتقرَ من المعروفِ شيئاً . فقال : (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق) . « رواه مسلم » . وقال : (يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارةٌ لجارتها ولو فرسن شاة) « متفق عليه » . وفرسن الشاة : المراد به العظم القليلُ اللحم . والمعنى لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتِها لاستقلالِها واحتقارها الموجودَ عندها بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً كفرسن شاة . قال الله تعالى :[1] ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهْ ﴾ وقال ﷺ : (إتقوا النار ولو بشق تمرة) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدّق بعدل تمرةٍ ، من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيبَ ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّه حتى تكونَ مثلَ الجبل) متفق عليه .

وفي رواية لمسلم (إلا أخذها الله بيمينه) وعند مسلم أيضاً في رواية (إلا أخذَها الرحمن) قال الحافظ في الفتح : وفي رواية لمسلم (فيقبضها) وفي حديث عائشة عند البزار (فتلقاه الرحمن بيده) (ثم يربيها) وفي مسلم (فيربيها كما يربي أحدكم فُلُوَّه) جاء

---

(١) سورة الزلزال الآية « ٧ » .

في رواية (كما يربي أحدكم مُهرَه) وفي أخرى عند البزار : مُهره أو وصيفه أو فصيله (حتى تكونَ) أي المتصدق به القليل بالتنمية (مثلَ الجبل) وفي رواية عن الترمذي (حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحد) قال الحافظ : والظاهر أن المراد بعِظَمِها أن عينها تعظم لتثقل في الميزان ، ويحتمل أن يكون ذلك معبراً به عن ثوابها ، ومثله في كلام المصنف في شرح مسلم نقلاً عن عياض .

قال المازني : وهذا الحديث وشبهه إنما عبر به على ما اعتادوا في خطابهم ليفهموا عنه ، فكنى عن قبولِ الصدقة باليمين وعن تضعيفِ أجرها بالتربية . وقال عياض : لما كان الشيء الذي يرتضى يُتلقى باليمين ويُؤخذ استعمُل في مثل هذا واستعير اليمِين للقبول وليس المرادُ به الجارحة ، وقيل عبّر باليمين عن جهة القبول إذ الشِمالُ بضدِه ، وقيل المراد يمينُ الدافع إليه الصدقة وإضافتها إلى الله تعالى إضافة ملك واختصاص لوضع هذه الصدقة في يمين الآخذ لله تعالى ، وقيل المراد سرعةُ القبول وقيل حُسنه . وقال الزين بن المنير : الكنايةُ عن الترضي والقبولُ بالتلقي باليمينِ لتثبيتِ المعاني المعقولة في الأذهان وتحقيقها في النفوس تحقيق المحسوسات أي لا تشكك في القبول كما لا يتشكك من عاينَ التلقي الشيء باليمين ، لا أن التناولَ كالتناولِ المعهود ولا أن المتناول به جارحة ، وقال الترمذي في جامعه : قال أهل العلم من أهل السنة والجماعة : نؤمن بهذه الأحاديث ولا نتوهم فيها تشبيهاً ، ولا نقول كيف هكذا روي عن مالك وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم وأنكرت الجهمية هذه الروايات أ هـ .

وأخبرنا ﷺ أنه رأى رجلاً يتقلب في الجنة أي يتنعم فيها بملاذها بسبب شجرة قطعها كانت تؤذي المسلمين وتعترض طريقهم . وكان الرجل مَرَّ بالطريق فرأى تلك الشجرة فقال والله لأُنحينَ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فشكر الله له فعلة وغفر له وأدخله الجنة .

وأخبرنا أيضاً عن رجل كان يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلُ الذي كان قد بلغ منّي ، فنزل البئر فملأ خفه ماءاً ثم أمسكه بفيه حتى رَقيَ ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل كَبد رطبة أجرٌ . متفق عليه .

وفي رواية للبخاري (فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة) وفي رواية لهما (بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش ، إذ رأته بَغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فسقته فغفر لَها بهِ) الموق : الخف ، ويطيف : يدور حول ركية وهي البئر .

الحث على المواساة وفعل الخير

(١)

قال رسول الله ﷺ : (المسلمون في تعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى) .

فكما أن الجسد الواحد إذا مرض منه عضو تألم له الباقي فلم يذق نوماً وسرت إليه حرارة الحمى فآلمته ، فكذلك المؤمنون حقيقة إذا ناب واحد منهم نائبة شعر بألمها الباقون فسعوا بما فيهم من العواطف لدفع الألم عنه وجلب الخير له فالمسلمون في مجموعهم كشخص واحد . فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم ، والشر ينوبه كأنما ناب جميعهم ، بهذا شبه الرسول ﷺ المؤمنين حقاً بالجسد الواحد فقال : (مثل المؤمنين) الحديث رواه البخاري .

وقد عرف المسلمون في الصدر الأول قيمة هذه الأخوة وصدق تلك المودة وما ينتج عنهما من منافع دنيوية وأخروية ، وعرفوا أن الخير لا يأتيهم كاملاً إلا بتآخيهم وعرفوا أن انكماش الإنسان على

نفسه وعدم شعوره بشعور غيره يؤدي إلى تفكك هذه الروابط وانحلال هذه المجموعة ، فضربوا أعظم المثل الذي لا يزال التاريخ الإسلامي يحدثنا عن فضائلهم ونتائجهم ، فسجل لهم أنصع الصفحات البيض في الجهاد بالنفس والمواساة بالمال بما يعجز التاريخ أن يسجل مثلها إلى يوم القيامة لأي أمة من الأمم ، ها هم المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم بعد أن آخى بينهم رسول الله ﷺ يتقاسمون أموالهم بالسوية عن طيب خاطر وسماحة نفس يواسي الأنصار إخوانهم المهاجرين .

وأعظم مظاهر المواساة الصدقة . ولذلك حثنا عليها الإسلام وأكّد ذلك تأكيداً شديداً ببيان فضل الصدقة والترغيب في الإنفاق والدعاء للمنفق بالبركة والخلف عليه والدعاء على البخيل بالتلف (اللهم أعط منفقاً خلفاً، اللهم أعط ممسكاً تلفاً) أي خراباً وعدم بركة وهذا الدعاء هو وظيفة ملكين من الملائكة الكرام ينزلان فيدعو أحدهما للمنفق ويدعو الآخر على الممسك وملك آخر بباب من أبواب الجنة يقول مَن يُقرضِ اليوم يُجزَ غداً ، وملك آخر بباب آخَرَ يدعو بالدعاء الأول أيضاً .

وقد وعد الله تعالى المنفق بالخير وزيادة الفضل فقال تعالى في الحديث القدسي: (يا عبدي أَنفق أُنفق عليك) .

وقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً للبخيل وللمنفق فقال : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق : فلا ينفق إلا سبغت ، أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا

لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسّعها فلا تتسع) رواه البخاري ومسلم .

« الجنة » بضم الجيم : ما أجن المرء وستره ، والمراد به ههنا : الدرع ، ومعنى الحديث : أن المنفق كلما أنفق طالت عليه ، وسبغت حتى تستتر بنان رجليه ويديه ، والبخيل كلما أراد أن ينفق لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع ، شبه ﷺ نعم الله تعالى ورزقه بالجنّة ، وفي رواية : بالجنة فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبغت ، ووفرت حتى تستره ستراً كاملاً شاملاً والبخيل : كلما أراد أن ينفق منعه الشح ، والحرص وخوف النقص فهو بمنعه يطلب أن يزيد ما عنده ، وأن تتسع عليه النعم فلا تتسع ولا تستر منه ما يروم ستره .

وفي مجال الحث على المواساة وفعل الخير أيضاً : جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (لا حسد إلّا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هَلكته في الحق . ورجل آتاه الله حكمه فهو يقضي بها ويعلمها) متفق عليه .

ومعناه : ينبغي أن لا يُغبط أحد إلّا على إحدى هاتين الخصلتين . ومعنى قوله : سلطه على هلكته أي على إنفاقه .

وروى هذا الحديث أيضاً أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث ابن عمر بلفظ (لا حسد إلّا في اثنتين :(رجل آتاه الله القرآنَ فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) ورواه أحمد والبخاري

من حديث أبي هريرة بلفظ (لا حسد إلّا في اثنتين : رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال : ليتني أُوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل . ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق فقال رجل : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت ما يعمل) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيكم مالُ وارثِهِ أحبُّ إليه من ماله ؟) قالوا : يا رسول الله ما منّا أحد إلّا مالُه أحبُّ إليه . قال : (فإنَّ مالَه ما قدمَ ومالَ وارثه ما أخّر) رواه البخاري . هذا فيه التحريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوهِ البر والقُرب لينتفعَ به في الآخرة فإن كلَ ما يُخلِّفه يصير ملكاً للوارث . كما قال : (ومالُ وارثه ما أخّر) فإن عمل فِيه بطاعةِ الله اختص بثوابه عن الميت وإن كان عمل فيه بمعصيةِ الله تعالى فذاك أبعدُ لمالكه الأولِ من الانتفاع إن سَلم من تبعته .

وفي مجال التأكيد عَلى الإنفاق والحث على المواساة يقول رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : (من أَنفق يُنفق عليك) متفق عليه . أي إن تنفقْ يُنفق أي يُوسع عليك ويُخلف عِوضَ ما تنفقه فعبر عنه بالإنفاق على سبيلِ المشاكلة .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : (يا ابن آدم إنك إن تَبذلِ الفضلَ خيرٌ لك وإن تُمسكه شرٌّ لك ولا تُلام على كفافٍ وابدأْ بمن تعول واليدُ العليا خير من اليد السفلى) رواه مسلم .

والفضلُ ما زاد على ما تدعو إليه حاجةُ الإنسان لنفسه ولمن يَمُونه .

وفي مجال الحث أيضاً على فعل الخير والمواساة يقول رسول الله ﷺ : (ما نقصت صدقةٌ من مال . وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً . وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه الله عز وجل) رواه مسلم .

ومعناه : أنه يُباركُ فيه ويدفعُ عنه المفسدات فيُجبرُ النقصُ الصوري بالبركةِ الخفية وهذا مدرك بالحسِّ والعادة . أو أنه وإن نقصت صورتُه لكن ثوابَه المعدّ له في الآخرة جابرٌ لنقصه .

ويحثنا ﷺ على الإنفاق وفعل الخير بهذا القسم وهو الصادق المصدوق فعن أبي كبشة عمر بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (ثلاثة أُقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقصَ مالُ عبد من صدقة . ولا ظُلِمَ عَبدٌ مظلمةً صبرَ عليها إلاّ زاده الله عِزّاً ولا فتحَ عبدٌ بابَ مسألة إلاّ فتحَ الله عليه بابَ فقر أو كلمةً نحوَها وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعةِ نفر : عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ويَصِل فيه رَحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضلِ المنازل وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملتُ بعملِ فلان فهو بنيته فأجرهما سواء . وعبد رزقه الله مالاً ولمْ يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل . وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرُهما سواء) رواه الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح .

وهكذا يقسم الرسول ﷺ على أمور ثلاثة تأكيداً لها ودفعاً

للمسلمين إلى قبولها رغم غرابتها وهي : أن الصدقَة لا تُنقص المالَ ، قال العز بن عبد السلام : ومعنى ذلك أن ابن آدم لا يضيع له شيء وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في عقباه فإن الإنسانَ إذا كان له داران فحول ماله من إحداهما إلى الأخرى لا يقال في ذلك المحوَّل إنه نقص من ماله . وثاني الثلاثة : من عفا عمن ظلمه مع القدرة على الانتقام أعزه الله تعالى في الدنيا والآخرة .

وثالث الثلاثة : لا يزداد الإنسان بالمسألة مالاً وإنما يزداد فقراً رغم ما يعود عليه من السؤال فيتبددُ ما جَمعه أو يُحرمُ الإنتفاعَ به ، وفي الآخرةِ يحرمُ من كثيرٍ من الحسنات .

ثم استطرد من هذه الثلاثة إلى أمور أخرى لمناسبة بين الجميع وحث على حفظها والاستفادة منها فوصف حالَ الناس مع الدنيا فمنهم من جمعَ بين العلم والغنى فاتقى ربه في المال فلم يصرفه في معصيةٍ ولم يُحصّله من طريق حرام وَوَصَل رَحِمه وأدَّى حقَ الله فيه من الزكاة وغيرها ومنهم من رُزقَ العلمَ دون الغني يتمنى أن لَو كان معه مال يتَّقي الله فيه ويتصرف فيه كما يَجب أن يكون التصرف فله ثواب الأول لحسنِ نيته وبركةِ عمله . والثالثُ جاهل غني يُسيءُ استعمالَ المال والتصرفَ فيه ولا يؤدي حقوقه وهذا في أخبثِ المنازل حيث حُرم الإنتفاع بما في يده من الخير. والرابع لا علمَ عنده ولا مالَ يتمنى أن يرزق المالَ ليكنزه كما كنزَه السابقَ ويسيء التصرف فيه كما أساء فعليه مثل ما على الثالث من وزر .

وفي مجال الحث أيضاً على الإنفاق :

عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ :

ما بقي منها ؟ قالت ما بقي منها إلاّ كتفها قال : (بقي كُلها غير كتفها) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن . ومعناه تصدقوا بها إلا كتفها فقال : بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها فإنه بقي في الدنيا .

وهنا يُؤكد الرسول ﷺ القول بالعمل فيسأل عما بقي من شاة ذبحوها فيخبرونه بأنهم تصدقوا بها إلا كتفها فيبين لهم أن ما تصدقوا به هو الباقي وأن كتفها هو الذاهب حيث يفنى بأكله ولا يبقى منه شيء للآخرة .

الحث على المواساة وفعل الخير ﷺ

(٢)

خير أبواب البر الصدقة .

والصدقة لها فوائد كثيرة دنيوية وأخروية . فمن فوائدها :

أنها تزيد في العمر ويذهب الله بها أرذل الأخلاق وأسوأها ويحفظ بها العبد من الفقر . فعن عمرو بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ: إن صدقة المسلم تزيد في العمر وتمنع ميتة السوء . ويذهب الله بها الكبر والفقر والفخر .

والمراد بزيادة العمر البركة فيه ، بأن يوفق للأعمال الصالحات فيعمل في سنوات قليلة من الخير ما لا يعمله غيره في سنوات كثيرة .

والصدقة خير أبواب البر . فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (خير أبواب البر الصدقة) .

والمتصدق في ظل صدقته يوم القيامة يوم لا ظل من حر الشمس كما جاء في الحديث عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل امرىء في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس) .

وفي رواية : عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ قال : ظل المؤمن يوم القيامة صدقته ـ وكان يزيد ـ لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة أو كذا .

والصدقة سد منيع بين المتصدق وبين السوء ودافعه لعظيم البلاء والشر فعن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ :

(الصدقة تسد سبعين باباً من السوء) وليس المقصود بالسبعين التحديد بل المراد التكثير والمعنى أنها تسد السوء بأنواعه ولذلك قد أمرنا النبي ﷺ بالمبادرة إلى فعل الصدقة وتقديمها في أول النهار .

فعن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها) ومعنى ذلك أن الصدقة تكون مثل السد العظيم أمام البلاء فلا يستطيع أن يتعداها وفي رواية : الصدقة تمنع سبعين نوعاً من أنواع البلاء أهونُها الجذام والبرص .

وقد جاء في رواية أخرى : الصدقات بالغدوات يذهبن بالعاهات . والغدوات : جمع غدوة الضحوة والمراد الصدقة أول النهار ، والعاهات : جمع عاهة وهي الآفة . والظاهر أن المراد ما يشمل الآفات الدينية والدنيوية وهو يدل على أن من فوائد الصدقة أن في بذلها السلامة من فتنة المال[1] ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لأن من آمن وتصدق فقد أسلم لله روحه وماله الذي هو عديل روحه فصار عبداً لله حقاً .

والصدقة تمنعُ ميتة السوء كما جاء ذلك عن أبي هريرة مرفوعاً . « رواه القضاعي » والمراد بميتة السوء الحالة التي يكون عليها الإنسان من الموت . قال التوربشتي : وأراد بها ما لا تحمد عاقبته ولا تؤمن غائلته من الحالات كالفقر المدقع والوصب الموجع والألم المقلق والعلل المفضية إلى كفران النعمة ونسيان الذكر والأهوال الشاغلة عماله وعليه ونحوها . وقال الطيبي : الأولى

(١) سورة التغابن الآية « ١٥ » .

أن يحمل موت السوء على سوء الخاتمة ووخامة العاقبة من العذاب في الآخرة . قال أبو زرعة : ليس معناه أن العبذ يقدر له ميتة السوء فتدفعها الصدقة بل الأسباب مقدرة كما أن المسببات مقدرة فمن قدر له ميتة السوء لا تقدر له الصدقة ومن لم يقدر له ميتة السوء يقدر له الصدقة . قال العامري : ميتة السوء قد تكون في الصعوبة بسبب الموت كهدم وذات جنب وحرق ونحوها وقد تكون سوء حالة في الدين كموته على بدعة أو شك أو إصرار على كبيرة ، فحث على الصدقة لدفعها لذلك .

وعن رافع بن مكيث وكان ممن شهد الحديبية أن رسول الله ﷺ قال : (حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم والبر زيادة في العمر والصدقة تقي ميتة السوء) .

فالصدقة خير دافع للبلاء وأعظم مانع للسوء وهذا كله بإذن الله سبحانه وتعالى فهو المانع والنافع في الحقيقة وإنما الصدقة وغيرها أسباب لذلك فإذا كان البلاء والشر والسوء بقضاء الله وقدره فإن الصدقة تدفع ذلك بقضاء الله وقدره أيضاً .

هكذا أخبرنا النبي ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى والذي قضى وقدر البلاء هو الذي أخبرنا بأنه قضى وقدر أن الصدقة تدفع ذلك .

الحث على المواساة وفعل الخير

(٣)

ومن فوائد الصدقة أنها حجاب من النار .

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إتقوا النار ولو بشق تمرة) رواه الشيخان . أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية أي حجاباً ولو كان الاتقاء بالتصدق بشيء قليل جداً مثل شق تمرة أي جانبها أو نصفها فإنه يفيد . فلا يحتقر المتصدق ذلك فلو هنا للتقليل وقد ذكر التمرة دون غيرها كلقمة طعام لأن التمر غالب قوت أهل الحجاز والإتقاء من النار كناية عن محو الذنوب[1] ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (وأتبع السيئة الحسنةَ تمحها) وبالجملة ففيه حث على التصدق ولو بما قل .

وفي الطبراني من حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً (اجعلوا بينكم وبين النار حجاباً ولو بشق تمرة) ولأحمد من حديث ابن مسعود مرفوعاً بإسناد صحيح (ليتق أحدكم وجهه للنار ولو بشق تمرة) وله من حديث عائشة بإسناد حسن (يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة . فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان) ولأبي يعلى من حديث أبي بكر الصديق نحوه وأتم منه بلفظ (تقع من الجائع موقعها من الشبعان) وكأن الجامع بينهما في ذلك حلاوتها .

وفي رواية : (يا عائشة اشتري نفسك من الله لا أغني عنك من الله شيئاً ولو بشق تمرة) .

---

(١) سورة هود الآية « ١١٤ » .

وفي رواية : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار) .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : (إحتجبي من النار ولو بشق تمرة) .

وفي رواية : أن رَسول الله ﷺ قال : (اجعلوا بينكم وبين النار حجابة ولو بشق تمرة) .

وهذه الأحاديث تدل على أن اليسير من الصدقة يستر المتصدق من النار وهذا أحد فوائدها .

والصدقة تكفر الذنوب مهما عظمت .

ففي الحديث : والصدقة تطفىء الخطيئة ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعة ستين عاماً فأمطرت الأرض فاخضرت فأشرق الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمي عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له) . رواه ابن حبان في صحيحه . ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً عليه . ولفظه :

إن راهباً عبد الله في صومعته ستين سنة فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه فنزل إليها فواقعها ست ليال ثم سقط في يده فهرب فأتى

مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً فأتى برغيف فكسره فأعطى رجلاً عن يمينه نصفه وأعطى آخر عن يساره نصفه فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه فوضعت الستون في كفه ووضعت الستة في كفة فرجحت ـ يعني الستة ـ ثم وضع الرغيف فرجح يعني رجح الرغيف الستةَ .

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عجرة : (يا كعب بن عجرة الصلاة قربان والصيام جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، يا كعب بن عجرة الناس غاديان فبائع نفسه فموثق رقبته ومبتاع نفسه في عتق رقبته) . رواه أبو يعلى بإسناد صحيح .

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت النارُ أولى به ، يا كعب بن عجرة الناس غاديان فغادٍ في فَكاك نفسه فمعتقها . وغادٍ فموثقها ، يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يذهب الجليد على الصّفا) . رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فذكر الحديث إلى أن قال فيه : ثم قال : يعني النبي ﷺ (ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله قال : الصوم جُنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . ويأتي بتمامه في الصمت وهو عند ابن حبان من حديث جابر .

وكثرة الصدقة تجلب سعة الرزق وتقضي الحاجات وتكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول .

روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السّر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا) . رواه ابن ماجه .

ومعنى تجبروا : تجب دعواتكم وتغتنوا .

والمتصدق يُرغِم بصدقته أنفَ الشيطان بل يغيظُ بها سبعين شيطاناً كلهم يحرصون على عدمِ أدائها ويزينون له تركَ التصدق.

فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يُخرجُ رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لِحْيَيْ سبعين شيطاناً) . رواه أحمد والبزار وابن خزيمة في صحيحه .

وفي رواية عند البيهقي عن أبي ذر موقوفا عليه قال : (ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لَحْيَا سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها)

وجاء أن الصدقة تكفر فتنة الرجل في أهله وولده .

ومناولةُ المسكين تقي ميتة السوء ، ولذلك كان حارثةُ قد عمل بهذه فاتخذ خيطاً في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده إناءً فيه تمر فكان إذا جاءه المسكين فسلّم أخذ من ذلك التمر ثم أخذ

بطرف الخيط حتى يناوله وكان أهله يقولون نحن نكفيك فيقول لهم مناولة المسكين تقي ميتة السوء .

والصدقة يكتب ثوابها قبل أن تقع في يد المسكين ، ولا تزال تتضاعف وتزيد إلى ما شاء الله وهذا معنى قوله إن الرجل إذا تصدق فإنها تقع في يد الرحمن ويربيها له حتى تصير مثل جبل أحد والصدقة تطفيء عن صاحبها حرّ القبر .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الصدقة لتطفىء عن أهلها حر القبور وإنها يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته) . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يدفع بالصدقة حر القبر وذلك قبل يوم القيامة وهذا دليل على أن منفعَة الصدقة تشمل العوالم الثلاثة عالم الدنيا وعالم الآخرة وعالم البرزخ .

فضل صدقة السر

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (سبعةٌ يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام وعادل وشابٌّ نشأ بعبادة الله ورجلٌ قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقُ يمينُه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)

قال القاضي : إضافة الظل إلى الله تعالى إضافة ملك وكل ظل فهو لله وملْكِه وخلقِه وسلطانِهِ والمراد هنا ظل العرش كما جاء في حديث آخر مبيناً والمراد من يوم القيامة : إذا قامَ الناس لرب العالمين ودنت منهم الشمس واشتد عليهم حرُّها وأخذهم العرقُ ولا ظل هناك لشيءٍ إلا للعرش وقد يراد به هنا ظل الجنة وهو نعيمُها والخلود فيها كما قال تعالى[1] : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيْلاً ﴾ قال القاضي وقال ابن دينار المراد بالظل هنا الكرامة والكنفُ والكفُّ عن المكاره في ذلك الموقف . قال وليس المرادُ ظل الشمس قال القاضي وما قاله معلوم في اللسان يقال فلان في ظل فلان أي في كنفِه وحمايتِه قال وهذا أولى الأقوالِ وتكون إضافتُه إلى العرشِ لأنه مكان التقريبِ والكرامةِ وإلا فالشمسُ وسائرُ العالم تحت العرش .

وفي هذا الحديث فضل صدقةِ السر لأنه أقربُ إلى الإخلاصِ

(١) سورة النساء الآية « ٥٧ » .

وأبعدُ من الرياءِ وأما الزكاةُ الواجبة فإعلانها أفضل وهكذا حكمُ الصلاة فإعلانُ فرائضها أفضل وأسرارُ نوافلها أفضل لقوله ﷺ (أفضل الصلاةِ صلاةُ المرء في بيته إلا المكتوبة) قال العلماء وذكر اليمينِ والشمالِ مبالغة في الإخفاء والاستتارِ بالصدقةِ وضربِ المثل بهما لقربِ اليمين من الشمال وملازمتها لها ومعناه لو قدرت الشمالُ رجلاً متيقظاً لما عَلمَ صَدقةَ اليمين لمبالغته في الإخفاءِ ونقل القاضي عن بعضهم أن المرادَ مَنْ عن يمينهِ وشماله من الناس والصواب الأول .

وقد جاء في القرآن ما يدل على فضل صدقة السر . قال الله تعالى[1] ﴿ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

روي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لَمَّا خَلَقَ الله الأرضَ جعلتْ تَمِيْدُ وتكفَّأُ فأرساها بالجبالِ فاستَقَرَّتْ فعَجَبَتِ الملائكةُ من شِدة الجِبال فقالتْ : يا ربَّنا هل خلقتَ خَلْقاً أشدَّ من الجِبال ؟ قال : نعم الحديدَ . قالوا فهل خَلقْتَ خلْقاً أشدَّ مِن الحدِيدِ ؟ قال : النَّارَ . قالوا فهل خلَقْتَ خلقاً أشدَّ من النارِ ؟ قال : الماء . قالوا فهل خلقْتَ خَلْقاً أشدَّ مِن الماءِ ؟ قال : الرِّيحَ . قالوا : فهل خلَقْتَ خلْقاً أشدَّ من الريح ؟ قال : ابنَ آدم إذا تَصَدَّقَ بصدقة بيمينه فأَخْفَاها مِن شِماله) رواه الترمذي واللفظ له . والبيهقي وغيرهما وقال الترمذي . حديث غريب .

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنَّه قال : (إِن صدقةَ السِّرِّ تُطْفِىءُ

(١) سورة البقرة الآية « ٢٧١ » .

غضبَ الرَّبِّ تبارَك وتعالى) . رواه الطبراني في الكبير .

وفي رواية : (صَنَائِعُ المعروف تَقِي مصارعَ السُّوء - وصدقةُ السرِّ تُطفِىءُ غضبَ الرَّب وصلةُ الرَّحم تَزيدُ في العمر) رواه الطبراني في الكبير بإسنادٍ حسن .

وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (صَنائعُ المعروفِ تَقِي مصارعَ السوء والصدقة خَفِيًّا تُطفِىءُ غضبَ الرَّبِّ وصِلةُ الرحم تزيد في العمر وكُلُّ معروفٍ صدقةٌ وأهلُ المعروفِ في الدنيا هُمْ أَهْلُ المعروف في الآخرة وَأهلُ المنكرِ في الدنيا هُمْ أَهْلُ المنكرِ في الآخرة وأوّلُ مَن يدخلُ الجنةَ أَهْلُ المعروفِ) رواه الطبراني في الأوسط .

وجاء أنه سئلَ أيُّ الصدقةِ أَفضلُ فقال : (سِرٌّ إلىٰ فَقيرٍ أو جَهد من مُقِلٍّ) . ثُمّ قرأ :[1] ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدقاتِ فَنِعِمَّا هِي ﴾ رواه أحمد مطولاً والطبراني واللفظ له .

وجاء أيضاً أن صاحب صدقة السر من الفائزين بمحبة الله تعالى له .

فعن أبي ذر رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ قال : (ثَلاَثةٌ يُحبُّهم الله . وثلاثة يَبْغَضُهُم اللَّهُ فأما الذين يُحِبُّهم فَرَجُلٌ أَتىٰ قوماً فسألهم بالله ولم يَسألْهم بقَرابة بينهم وبينه فَمَنَعُوه فَتَخَلَّف رَجُلٌ بأَعْقابِهِم فأعطاه سِرًّا لا يَعلم بعطيته إلاّ اللَّهُ والَّذي أعطاه . وقومٌ ساروا

---

(١) سورة البقرة الآية « ٢٧١ » .

لَيْلَتَهم حتَّى إذا كان النومُ أحبَّ إلَيْهم مِمَّا يُعْدَلُ به فوضعوا رؤوسهم فقام يَتَمَلَّقُنِي ويَتْلُو آياتي . وَرجلٌ كان في سَرِيَّة فلَقِي العدُوَّ فهُزِموا فأقبل بصَدْرِه حتى يقتل أو يُفْتَح له . والثلاثةُ الذين يَبْغَضُهُم اللَّهُ الشيخُ الزَّانِي والفقيرُ المختالُ وَالْغني الظلوم) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه واللفظ لهما إلا أن ابن خزيمة لم يقل : فمنعوه والنسائي والترمذي ذكره في باب كلام الحور العين وصححه وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال في آخره (ويَبْغَضُ الشَّيْخَ الزَّاني وَالْبَخِيْلَ والمتكبرَ) والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

ومعنى ذلك أن هذا السائل لم يعطه أحد من القوم إلاّ رجل تخلّف عنهم لئلا يراه أحد وأعطاه سراً .

ومع أن صدقة السر أفضل وأكمل إلاّ أنه قد جاء ما يدل على فضل العلانية أيضاً وذلك من قوله تعالى(١) : ﴿ الَّذِيْنَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً ﴾ .

وقيل في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في عليٍ بن أبي طالب كان عنده أربعةُ دراهم فأنفق بالليلِ واحداً وبالنهارِ واحداً وفي السر واحداً وفي العلانية واحداً . [رواه عبد الرزاق] .

وقد نقل الطبري وغيره الإجماع على أن الإعلان في صدقة الفرض أفضل من الإخفاء وصدقة التطوع على العكس من ذلك .
ويرى بعض العلماء أنّ قوله تعالى(٢) : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ

---

(١) سورة البقرة الآية « ٢٧٤ » .
(٢) سورة البقرة الآية « ٢٧١ » .

فنِعِمّا هي ﴾ . خاص بالصدقة على اليهود والنصارى ، وأنها نزلت في ذلك وأن قوله بعد ذلك ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ . خاص بالصدقة على فقراء المسلمين . فالمعنى إن تؤتوها أهل الكتابين ظاهرة. فلكم فضل وإن تؤتوها فقراءكم سرّاً فهو خير لكم .

قال : وكان يأمر بإخفاء الصدقة مطلقاً . ونقل أبو إسحاق الزجاج إن إخفاء الزكاة في زمن النبي ﷺ كان أفضل فأما بعده فإن الظن يساء بمن أخفاها فلهذا كان إظهار الزكاة المفروضة أفضل . قال ابن عطية ويشبه في زماننا أن يكون الإخفاء بصدقة الفرض أفضل فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياء . انتهى .

وأيضاً . فكان السلف يعطون زكاتهم للسعاة وكان من أخفاها أتهم بعدم الإخراج وأما اليوم فصار كل أحد يخرج زكاته بنفسه فصار إخفاؤ ها أفضل . والله أعلم . وقال الزين ابن المنير : لو قيل إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال لما كان بعيداً . فإذا كان الإمام مثلاً جائراً ومالُ من وجبت عليه مخفياً فالإسرار أولى . وإن كان المتطوعُ ممن يُقتدى به ويُتّبع وتنبعث الهمم على التطوع بالإنفاق وسَلِم قصدُه فالإظهار أولى .

فضل الصّدقة

والصدقة أجرها ثابت وفضلها حاصل ولو وقعتْ في يد فاسق ليس بثقة ولا صالح وذلك لما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ . قال : قال رجُل لأتصدقنّ الليلةَ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّقَ الليلةَ على زانيةٍ . قال اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غنيٍّ فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّقَ على غنيّ . قال : اللهم لك الحمد على غني لأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّقَ على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق . فأُتي فقيل له أَمَّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ . أمّا الزانية فلعلها تستعفُّ بها عن زناها ولعلّ الغنيَّ يَعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعلّ السارق يستعفّ بها عن سَرِقَتِه [رواه مسلم] .

والصدقة أجرها ثابت وفضلها حاصل أيضاً ولو لم يأذن المالك الحقيقي فيها إذا عَلم المتصدِّق أن المالك لا يغضب وذلك كأن تتصدق المرأة من بيت زوجها أو يتصدق الخازن من مال صاحبه أو الخادم من مال سيده ، بشرط أن لا يحصل إفساد يؤذي صاحب المال وأن لا يغضب إذا علم ذلك . وهذا في حكم الإذن والرضا . قال النبي ﷺ : إن الخازنَ المسْلمَ الأمينَ الذي يُنْفِذُ « وربّما قال يُعطي » ما أُمِر به فيعطيه كاملاً موفَّراً طيبةً به نفسُه فيدفعه إلى الّذي أُمِرَ لَهُ بِه أَحَدُ المتصدّقين .

وفي رواية : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : إذا أنفقت

المرأةُ من طَعام بَيْتها غير مُفْسِدَة كان لها أجرها بما أَنْفَقَتْ وَلِزَوْجِها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا يَنْقُصُ بعضُهم أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئاً [رواه مسلم] .

وفي رواية : من طعام زوجها : وفي رواية في العبد إذا أنفق من مال مواليه قال الأجر بينكما نصفان .

وفي رواية : ولا تصم المرأة وبعلها شاهد إلاّ بإذنه ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه وما أنفقتْ من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له .

ومعنى هذه الأحاديث أن المشارك في الطاعة مشاركٌ في الأجر ، ومعنى المشاركة أن له أجراً كما لصاحبه أجر وليس معناه أن يزاحمه في أجره والمراد المشاركة في أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب وإن كان أحدهما أكثر ولا يلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء بل قد يكون ثواب هذا أكثر وقد يكون عكسه . فإذا أعطى المالك لخازنه أو امرأته أو غيرهما مائة درهم أو نحوهما ليوصلها إلى مستحق الصدقة على باب داره أو نحوه فأجر المالك أكثر وإن أعطاه شيئاً يسيراً كرغيف ونحوه مما ليس له كثير فيكون مقدار الأجر سواء .

وجاء مملوك يسأل النبي ﷺ ويقول أأتصدَّقُ من مال مواليّ بشيء قال نعم : والأجر بينكما نصفان .

وفي رواية ، إن هذا المملوك قال : أمرني مولاي أن أُقَدِّدَ لحماً فجاءني مسكينٌ فأطعمتُه منه فَعَلم بذلك مولاي فضربني فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرتُ ذلك له فدعاه فقال لِمَ ضربتَه فقال يعطي طعامي بغير

أنْ آمرَه فقال الأجر بَيْنَكما [رواه مسلم] .

ومعنى قوله « الأجر بينكما نصفان » أي قسمان وإن كان أحدهما أكثر . وقوله « الأجر بينكما » ليس معناه أن الأجر الذي لأحدهما يزدحمان فيه بل معناه أن هذه النفقة والصدقة التي أخرجها الخازن أو المرأة أو المملوك ونحوهم بإذن المالك يترتب على جملتها ثواب على قدر والمال والعمل فيكون ذلك مقسوماً بينهما ، لهذا نصيب بماله ولهذا نصيب بعمله ، فلا يزاحم صاحبُ المال العاملَ في نصيبِ عمله ولا يزاحمُ العاملُ صاحبَ المال في نصيب ماله .

واعلم أنه لا بد للعامل وهو الخازن وللزوجة والمملـوك من إذن المالك في ذلك فإن لم يكن إذن أصلاً فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم في مال غيرهم بغير إذنه . والإذن ضربان أحدهما الإذن الصريح في النفقة والصدقة . والثاني الإذن المفهوم من اطراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطراد العرف فيه وعلم بالعرف رضاء الزوج والمالك به فإذنه في ذلك حاصل وإن لم يتكلم . وهذا إذا علم رضاه لاطرادِ العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس في السماحة بذلك والرضا به فإن اضطراب العرف وشك في رضاه ، أو كان شخصاً يَشِح بذلك ، وعلم من حاله ذلك أوشك فيه لم يجز للمرأة وغيرها التصدق من ماله إلا بصريح إذنه .

أفضل أحوال المتصدقين

وأفضل الصدقةِ أن يتصدقَ الإنسانُ في حياتِه ـ قبل موته ـ لأن أملَه في الدنيا كبير ورغبتَه في المال عظيمة ، وهنا يظهر كرم نفسه أو شحُّها . وهذا مصداق ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتىٰ رسولَ الله ﷺ رَجلٌ فقال : يٰا رسولَ الله أيُّ الصَّدقةِ أعظمُ ؟ فقال : (أن تَصدَّق وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ تَخشى الفَقْرَ وتَأْمُلُ الْغِنى ولا تُمهلَ حتى إذا بلغتِ الحلقوم قلتَ : لفلان كذا ولفلان كذا ألا وقد كان لفلان .

ومعنى هذا الحديث ، أن الشح غالب في حال الصحة فإذا سمح فيها وتصدقَ كان أصدقَ في نيته وأعظمَ لأجره بخلافِ من أشرف على الموت وأيِس من الحياة ورأى مصيرَ المال لغيرهِ فإن صدقَتَه حينئذ ناقصة بالنسبةِ إلى حالةِ الصحة والشح رجاءَ البقاء وخوفَ الفقر .

ومعنى بلغت الحلقوم : بلغت الروحُ والمراد قاربت بلوغَ

الحلقوم إذ لو بلغته حقيقة لم تصح وصيته ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء .

وقال ﷺ : (أفضلُ الصّدقةِ ما كان عَنْ ظَهر غنىً وَاليدُ العُليا خيرٌ مِن اليد السُّفْلىٰ وَابْدَأْ بِمَن تَعولُ) .

ومعنى هذا الحديث : أفضل الصدقة ما بقي صاحبها بعده مستغنياً بما بقي معه وتقديره أفضل الصدقة ما أبقت بعدها غنىً يعتمدُه صاحبها ويستظهر به على مصالِحِه وحوائجه وإنما كانت هذه أفضل الصدقةِ بالنسبة إلى من تصدق بجميع مالِهِ لأن من تصدق بالجميع يندم غالباً أو قد يندم إذا احتاج ويود أنه لم يتصدق بخلاف مُن بقي بعدها مستغنياً فإنه لا يندم عليها بل يُسرّ بها . وقد اختلف العلماء في الصدقة بجميع ماله . قال الإمام النووي : مذهبنا أنه مستحب لمن لا دين عليه ولا له عيال لا يصبرون ، بشرط أن يكون ممن يصبر على الضيق والفقر فإن لم تجتمع هذه الشروط فهو مكروه . قال القاضي : جوز جمهور العلماء وأئمة الأمصار الصدقة بجميع ماله . وقيل يُرد جميعُها وهو مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقيل ينفذ في الثلث هو مذهب أهل الشام . وقيل إن زاد على النصفِ رُدت الزيادةُ وهو محكي عن مكحول . قال أبو جعفر والطبري : ومع جوازه فالمستحب أن لا يفعلَه وأن يقتصر على الثلث .

وأفضلُ الصدقة أن يتصدَق الإنسان على أهله وأقربائه وأولادِه ولو كانوا مشركين . ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أنه قال :كان أبُو طلحةَ أكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة مالاً ، وكان أحبُّ أموالِه إليه بَيْرَحَى . وكانت مُستقبِلةَ المسجد وكانَ رسولُ الله ﷺ يَدخلُها ويَشربُ من ماءٍ فيها طيِّبٍ . قال أنسٌ : فلمّا نزلتْ هذه الآيةُ[1] ﴿لَنْ تنالُوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾ فقام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال إن الله يقول في كتابه ﴿لَنْ تَنالُواالبِرَّحَتى تُنْفِقُوا مما تُحِبُّونَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إلَيّ بَيْرَحَى وإنّها صَدقةٌ لِلّهِ أَرْجُو بِرَّها وذُخْرَها عِند الله فضَعْها يا رسولَ الله حيثُ شِئْتَ . قال رسولُ الله ﷺ : (بَخ ذلك مالٌ رَابحٌ ذلك مالٌ رَابِحٌ قَد سمعتُ ما قلتَ فيها وإنّي أرَى أن تَجْعلَها في الأَقْرَبِين) فَقَسَمَها أبو طلحةَ في أقَارِبِهِ وبني عمِّه .

وفي رواية ، عن أنس قال : لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ ﴿ لَنْ تَنالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا ممّا تُحِبُّون ﴾ قال أبو طَلحَة : أرىٰ ربَّنَا يَسْأَلُنا من أَمْوَالِنَا فأُشْهِدُكَ يا رسولَ الله أنّي قد جَعلتُ أرضي بَيْرحى لله . قال : فقال رسول الله ﷺ : (إجْعَلْهَا في قَرَابَتِك) قال فَجَعَلَها في حَسَّانِ بن ثابت وأُبيٍّ بن كعب [رواه مسلم] .

قوله : بخ ذلك مالٌ رابحٌ . معناه : تعظيم الأمر وتفخيمه .

وفي هذا الحديث من الفوائد أن الصدقة على الأقارب أفضل من الأجانب إذا كانوا محتاجين . وفيه أن القرابة يرعى حقها في صلة الأرحام وإن لم يجتمعوا إلّا في أبٍ بعيد لأن النبي ﷺ أمر أبا طلحة أن يجعل صدقته في الأقربين فجعلها في أبي بن كعب

---

(١) سورة آل عمران الآية « ٩٢ » .

وحسان بن ثابتٍ . وإنما يجتمعان معه في الجد السابع .

وفي الحديث أيضاً أن ميمونةَ بنت الحارث أعتقت وليدةً في زمان رسولِ الله ﷺ فذَكَرَتْ ذلك لرسول الله ﷺ فقال : لو أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كان أَعظمَ لأَجْرِك [رواه مسلم] .

وفي رواية : أَخَوَاتِك : بالتاء . قال القاضي : ولعله أصح بدليل رواية مالك في الموطأ أعطيتها أختك . قلت : الجميع صحيح ولا تعارض وقد قال ﷺ ذلك كلَّه .

وفيه الإعتناء بأقارب الأم إكراماً بِحقِّها وهو زيادةٌ في برِّها . وفيه أيضاً جواز تبرع المرأة بمالها بغير إذن زوجها . وفيه أيضاً فضيلة صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب وأنه أفضل من العتق .

ومما يدل على فضل الصدقة على الأقارب حتى ولو كان المتصَدّقُ عليه زوجاً أو أولاداً ما جاء في الحديث عن زينب امرأة عبدالله قالت : قال رسولُ الله ﷺ : (تَصدَّقْنَ يا معشرَ النِّساء ولَوْ من حُلِيِّكُنَّ) . قالت : فرجعتُ إلى عبدالله فقلت إنَّكَ رَجلٌ خفيفُ ذاتِ الْيد وإن رسول الله ﷺ قد أَمَرَنَا بالصدقة فَأْتِه فاسأله فإن كان ذلك يُجزِيء عنّي وإلّا صرفتُها إلى غيركم قالت : فقال عبدالله بل ائتيه أنتِ . قالت : فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتُها قالت : وكان رسول الله ﷺ قد أُلْقِيَتْ عليه المهابةُ قالت فخرج علينا بلالٌ فقُلنا له أئتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك أتُجزىءُ الصدقةُ عنهُما على أزواجِها وعلى أيتام حجورهما ولا تُخْبِرْه من نَحْنُ قالت : فدخل بلالٌ على رسول

الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب . فقال رسول الله ﷺ : أيُّ الزَّيَانِبِ قال : امرأة عبدالله . فقال له رسول الله ﷺ : لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة . [رواه مسلم] .

ومما يدل على فضل الصدقة على الأقارب قوله ﷺ : (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يَحتسِبُها كانتْ له صدقةً) .

ومما يدلّ على فضل الصدقة على الأقارب ولو كانوا مشركين ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قلتُ يا رسولَ الله إن أمّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وهي راغِبةٌ[1] أو راهبة أفَأَصِلُها ؟ قال : نعم .

وفي رواية عنها أنها قالت : قَدِمَتْ عليّ أمي وهي مشركةٌ في عهد قريش إذْ عَاهَدَهم فَاسْتَفْتَيْتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ يا رسولَ الله قدمَتْ عليّ أمي وهي راغبة أَفَأَصِلُ أمِّي قال : نعم صِلي أُمَّك . [رواه مسلم] .

وفي رواية أخرى . راغبة ، بلا شك وفيها « وهي مشركة » فقلت للنبي ﷺ أفأصل أمّي ؟ قال : نعم صِلي أمَّك .وفيه جواز صلة القريب المشرك .

---

(١) راغبة : أي في بر إبنتها .

برّ الوالدين

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قال : سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أيُ ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أيُ ؟ قال : ثم الجهاد في سبيل الله . قال : حدثني به ولو استزدته لزادني . رواه الشيخان .

هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم النبوية . وذلك لأن في قوله [أحبّ العمل إلى الله بر الوالدين] من المعاني السامية والفوائد الجامعة ما لا يدخل تحت حصر أو حساب . وهل هناك وصف أجلّ أو أعظم من الوصفِ لعملٍ بأنه أحبُ الأعمال إلى الله ؟ ولا أظنّ أنّ مسلماً يحبّ الخيرَ لنفسه ويسعى فيه ، يسمع بهذا الفضل ثم لا يحرص على فعله .

وقد جمع في هذا الحديث الشريف بين ثلاثة أعمال هي أعظم أمور الدين الصلاةُ ، وبرْ الوالدين ، والجهادُ . وهي عنوانُ ما سواها من الطاعات وذلك لأن مَن ضيّع الصلاة المفروضة حتى

يخرجَ وقتها مِن غير عذر مع خفةِ مؤنتها وعِظم فضلِها فهو لما سواها أضيع . ومن لم يبرَّ بوالديه مع وفورِ حقهما عليه كان لغيرهما أقل برّاً . ومن قعد عن جهاد الكفار مع شدة عداوتهم للدين كان أشد قعوداً عن الجهاد بغيرهم من الفساق فظهر أن الثلاثة تجمعُ في أن من حافظ عليها كان على ما سواها أحفظ ومن ضيعها كان لِما سواها أضيع . وقدم حق الله ثم ثنى بحق الأقرب لقوله تعالى[1] ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ وثلَّث بحق الأمة . ولعظم حقهما وكبير فضلهما أمرنا الله بالإحسان إليهما ولو كانا كافرين . قال تعالى[2] ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا ﴾ تقول أسماء بنت أبي بكر : أتتني أمي راغبة أي طامعة في برِّ إبنتها وكانت كافرة . تقول أسماء فسألت النبي ﷺ أفأصلها . قال : نعم . (رواه البخاري) .

قال ابن عيينة فأنزل الله عز وجل[3] ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ ﴾ .

ولعِظم حَقهما ، وعِظم فضلهما ، أمرنا الله بالإحسان إليهما ولو كانا ظالمين ، يقول ﷺ : (ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسباً ، إلاّ فتح الله بابين ـ يعني من الجنة ـ وإن كان واحدٌ فواحد ، وإن كان أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه . قيل : وإن ظلماه ؟ قال : وإن ظلماه) . (أخرجه

(١) سورة الإسراء الآية « ٢٣ » .
(٢) سورة لقمان الآية « ١٥ » .
(٣) سورة الممتحنة الآية « ٨ » .

البيهقي في شعب الإيمان) وفي رواية وإن ظلماه وإن ظلماه ثلاث مرات .

وهذه صور من واقع التاريخ تبين عظيم فضل البر بالوالدين العاجل في الدنيا قبل الآخرة .

ذكر في التفاسير أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل وله ابن طفل وله عِجلة فأتىٰ بها غَيْضَة وقال : اللهم إني استودعتك هذه العجلة لإبني متى يكبر . ومات ذلك الرّجل وصارت العجلة في الغيضة عَواناً وكانت تُهرب من الناس . فلما كبر ذلك الطفل وكان بارّاً بأمه . وكان يقسم ليله ثلاثة أجزاء يصلي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً . فإذا أصبح انطلق فيحتطب ويأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله فيتصدق بثُلثه ويأكل ثلثَه ويعطي أمه ثلثه . فقالت له أمه يوماً : يا بني إن أباك ورّثك عِجلة استودعها الله في غيضةِ كذا فانطلق وادعُ إلهَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردَّها عليك ، وعلامتها أنك إن نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم عليك بإلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه ، فقبض على قرنها يقودها فتكلمت بإذن الله تعالى وقالت : أيها الفتى البارّ بأمه إركبني فإنه أهون عليك . فقال الفتى : إن أمّي لم تأمرني بذلك ، فقالت البقرة : والله لو ركبتني ما كنتَ تقدر عليّ أبداً فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بأمك . فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه : إنك رجل فقير ولا مال لك

ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبعِ البقرة .
فقال : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي .
وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الفتى إلى السوق وبعث الله
ملكاً ليري خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف برْه بأمه وهو أعلم . فقال
له الملك بكم هذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا
أمّي . فقال له الملك : لك ستة دنانير ولا تستأمر أمك . فقال له
الفتى : لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي ورجع الفتى
إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت له : إرجع فبعها بستة دنانير ولا تبعها
إلّا برضاي . فرجع بها إلى السوق وأتى الملك فقال له: استأمرت
أمك ؟ فقال الفتى : نعم إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على
رضاها . فقال الملك : إني أعطيك إثني عشر ديناراً ولا تستأمرها .
فأبى الفتى ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك فقالت له أمه : إن الذي
يأتيك ملك في صورة آدمي يجربك . فإذا أتاك فقل له ، أتأمرنا أن
نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل فقال له الملك : إذهب إلى أمك فقل
لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل
يقتل في بني إسرائيل فلا تبيعيها إلا بملء مِسكها ذهباً ـ والمسك
الجلد ـ فأمسكها وقدر الله على بني إسرائيل ذبح البقرة بعينها فما
زالوا يستوصفون البقرة حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة
لذلك الفتى على بره بأمّه فضلاً من الله تعالى ورحمة فاشتروها منه
بملء مسكها ذهباً وضربوا ببعض أجزاءها القتيل فحيي وقام بإذن الله
تعالى وأوداجه تشخب دماً . وقال : قتلني فلان يعني إبن عمه ثم
سقط ميتاً مكانه . فحرم قاتله الميراث وإليه أشار قوله تعالى[1]

---

(١) سورة البقرة الآية « ٧٢ » .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها ﴾ الخ .

عن طاووس عن أبيه قال : كان رجل له أربعة بنين فمرض . فقال أحدهم : إما أن تُمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرَضه وليس لي من ميراثه شيء ، فمرّضه حتى مات ولم يأخذ من ميراثه شيئاً . قال : فأُتي في المنام فقيل له : إئت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار . فقال : أفيها بركة ؟ قالوا : لا . فلما أصبح ذكر ذلك لأمرأته فقالت : خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها فلما أمسى أُتي في النوم . فقيل له : إئت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير قال : أفيها بركة ؟ قالوا : لا . فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك . فأبى أن يأخذَها ، فأتى في الليلة الثالثة فقيل له : إئت مكان كذا وكذا وخذ منه ديناراً قال : أفيه بركة ؟ قالوا : نعم ، قال : فذهب فأخذ الدينار ثم خرج إلى السوق فإذا هو برجل يحمل حومَتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار فأخذهما منه وانطلق بهما إلى بيته فلمّا شقهما وجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده فباعها بثلاثين وِقراً [حملاً] ذهباً . فلما رآها الملك قال : ما تصلح هذه إلا بأخت فاطلبوا أختها ولو ضعّفتم الثمن فجاؤوه فقالوا : أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : نعم . فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى .

وإن أبلغ مثل يضربه القرآن الكريم في الطاعة والبر قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام . وهي قصة شهيرة معروفة ذكرها القرآن بإيجاز بلاغته فقال تعالى :

(١) ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وروي أن إبراهيم لما رأى ذبح إبنه قال الشيطان : لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتُن منهم أحداً أبداً . فمثّل برجل وأتى أم الغلام فقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيمُ بابنك ؟ قالت : ذهب به ليحتطبا من هذا الشعب . قال : والله ما ذهب به إلا ليذبحه قالت : كلا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك . قال : إنه يزعم أن الله أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسنَ أن يطيع أمره . فخرج من عندها حتى أدرك الإبن وهو يمشي على إثر أبيه . فقال له : يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب . قال : والله ما يريد إلاّ أن يذبحَك . قال : ولم ؟ قال : زعم أن ربَه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره ربه فسمعاً وطاعة . ثم أقبل على إبراهيم وقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ قال : أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه . قال : والله إني لأرَى الشيطان قد جاءك في منامك . فأمرك بذبح إبنك هذا . فعرفه إبراهيم فقال : إليك عني يا عدو الله لأمضين لأمر ربّي فرجع إبليس بغيظه لم يصب إبراهيم وآله بشيء .

---

(١) سورة الصافات الآية « ١٠١ - ١٠٧ » .

وهكذا كان سيدنا إسماعيل عليه السلام لم يفتنه الشيطانُ ولم يُشككه في حنانِ أبيه ولم يُزِغْه عن أمر ربه أخبره أبوه بالرؤ يا ، والرؤ يا غيرُ اليقظة . فلم يجزع ولم يخالف بل استسلم . إستسلم لأمر الله تعالى وأمرِ أبيه ولم تقف به نفسُه الغالبة عند هذا الحد بل أعان أباه على الطاعة وشجعه على تنفيذ أمر ربه فقال : [يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرْ] أما أنا فقد رضيت بما قدره الله لي وما ارتأيتَه أنتَ لي وإن أبَتْ علي نفسي فسأرغمها بالصبر [سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِيْنَ] .

هذه أروع قصة في الحياة البشرية . وأعظم مثل على طاعة الله وطاعة الوالد . فيها الإيمان التام والبر البالغ . فيها حكمة الله ، وشفقة الوالد ، وطاعة الولد . فيها الإخلاص في الدين والقول اليقين . والصبر المتين . فيها مثال رائع للإنسانية الكاملة .

وجوب برّ الوالدين

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه) .

فحق الوالدين عظيم لا يكافىءبإحسان ولا يُجازى بشيء مهما عظم ولذلك أمر ﷺ ببرهما وإن كانا ظالمين له يقول ﷺ : (من أصبح مُرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحداً فواحداً وإن ظَلما وإن ظَلما وإن ظَلما ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحانإلى النار وإن أمسىٰ مثلُ ذلك وإن واحداً فواحداً وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما) . رواه البيهقي في شعب الإيمان .

ومن هنا قدم حقهما على الجهادِ والهجرةِ في سبيل الله بالنسبة لمن يقوم بخدمتهما ويرعى شؤونهما وخصوصاً إذا كانا كبيرين أو لم يأذنا له بالخروج يقول ﷺ : (لمن إستأذن في الجهاد أحيّ والداك) قال نعم قال : (ففيهما فجاهد) [رواه البخاري ومسلم] .

وفي رواية لمسلم قال : أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله . قال : فهل من والديكِ أَحدٌ حيّ ؟ قال : نعم . بل كلاهما حيّ . قال : فتبتغي الأجر من الله ؟ قال : نعم . قال : فارجعْ إلى والديك ، فأحسنْ صحبتَهما .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى

رسول الله ﷺ فقال : (جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبويّ يبكيان ؟ قال : ارجع إليهما فأضْحكهما كما أبكيتهما) [رواه أبو داود] .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال : (هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواي . قال : أذنا لك ؟ قال : لا : قال : فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرَّهما) [رواه أبو داود] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدرُ عليه . قال : هل بقي من والديك أحد . قال : أمي قال : قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌ ومعتمرٌ ومجاهد .

وقد أراد أويسُ بنُ عامر القرَني أن يهاجرَ إلى رسول الله ﷺ ويتشرفَ بلقاءه ولكنه لم يستطع لاشتغاله بخدمةِ أمه وقد كان بها باراً وكان كلما أراد الخروج بكت وحزنت فيمتنع عن الخروج لأجل ذلك . فنال ببرهِ لها من الشرف ما لم ينله غيره وحازَ مزيةً خاصة رفعتْ ذكرَه وأشهرتْ أمرَه حتى كان سيدنا رسول الله ﷺ يتحدثُ عنه ويوصي به خيراً ويأمرُ أصحابَه أن يطلبوا منه الدعاء ويسألوه أن يستغفر لهم .

وفي صحيح مسلم : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد . ثم من قَرن . كان به برص فبرِأ منه

إلا موضَع درهم . له والدة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبره)

فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل وساق الحديث إلى أن ذكر اجتماع عمر به وقولَه فاستغفر لي. فاستغفر له فقال له أين تريد قال : الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي . . . وهذا بعض الحديث .

وفي رواية مسلم عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن خير التابعين رجل يقال له أويس وكان له والدةٌ هو بها بر وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم) .

وقد اجتهدَ عمر وعليّ رضي الله عنهما في طلبه عشر سنين حتى اجتمعا به في آخر السنة التي استشهد فيها عمر رضي الله عنه وطلبا منه الدعاء تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا خرج من بيته لا يصنع شيئاً حتى يبدأ بأمه . وكانت في بيتٍ آخر فيأتي إلى بابها ويقول السلام عليك يا أُمَّتَاه ورحمة الله وبركاته فتقول : وعليك يا بنيَّ ورحمةُ الله وبركاتُه . فيقول : رحمكِ الله كما ربيتِني صغيراً فتقول : رحمكَ الله كما بررتني كبيراً . ثم إذا أراد أن يدخل صنعَ مثله . [الأدب المفرد] .

ومن كمال البر بهما الأدب معهما في المجالسة والمعاملة والمخاطبة .

فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : أتى رسول الله ﷺ رجلٌ ومعه شيخ فقال له . (يا فلان من هذا معك ؟ قال : أبي .

قال : فلا تمش أمامه ولا تجلس قبله ولا تَدْعُهُ باسمه ولا تستسب له) [رواه الطبراني في الأوسط . وقال لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد] .

عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وهولين وقد نقل ابن دقيق العيد أنه ثقة ومحمد بن عروة بن البرند لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح .

وعن أبي غسان الضَّبي قال : (خرجت أمشي مع أبي بظهرِ الحرَّة فلقيني أبو هريرة فقال لي: من هذا قلت : أبي قال لا تمش بين يدي أبيك ولكن امشِ خلَفه أو إلى جانبه ولا تَدَعْ أحداً يحول بينك وبينه ولا تأكل شيئاً قد نظر أبوك إليه لعله قد اشتهاه ﴾ [رواه الطبراني في الأوسط] .

ومن كمال البر أن يتمنى لوالديه الخير وأن يدعوهما إلى الهدى وإذا رآهما على باطل لكن بالحكمة والموعظة الحسنة مع تمام الأدب والذوق . وأن يشتغل بالدعاء لهما . بالهداية والاستقامة والرجوع إلى الله .

يقول أبو هريرة كانت أمِّي مشركةً وكنتُ أرِيْدُهَا على الإسلامِ فتَأْبَى فقُلْتُ لها فأبَتْ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ : (أدعُ اللَّهَ لَهَا فَدَعَا فأَتَيْتُهَا وقَدْ أجَافَتْ عَليها الْبَابُ)[1] .

---

(١) « أجافت عليها الباب » ردته وأغلقته فسمعت أمي جِسَّ قدمي فقالت مكانكَ يا أبا هريرة وسمعتُ خضخضة الماء قال : (ولبست درعها وأعجلت عن خمارها ففتحتْ الباب) (الإصابة) .

فقالت : يا أَبَا هريرة ! إنّي أَسْلَمْتُ فأخْبَرْتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ : أدْعُ اللَّهَ لِي وَلأُمِّي فقَالَ : (اللَّهُمَّ ! عَبْدُكَ أَبُو هُرَيْرَةَ وأُمُّهُ أَحِبَّهُمَا إِلَى النَّاسِ) [أخرجه مسلم وأحمد] .

ومن كمال البر إدخال السرور عليهما وجبر خاطرهما فقد قال ﷺ (لمن خرج للجهاد وأبكى والديه إرجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما) .

ومن كمال البر أن يقدم أمرهما على كل أمره وحاجتهما على حاجته ومرادهما على مراده . فقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : أوصاني رسول الله ﷺ بتسع : (لا تشرك بالله شيئاً وإن قطِّعتَ أو حرِّقت ولا تتركنَّ الصلاة المكتوبة متعمداً ومن تركها متعمداً برئت منه الذّمة ولا تشربنَّ الخمر فإنها مفتاح كل شر وأَطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما ولا تنازعَنَّ وُلاة الأمرِ وإن رأيت أنك أنت ، ولا تفرر من الزحف وإن هلكت وفَرَّ أصحابُك وأنفق من طَولك على أهلك ولا ترفع عصاك على أهلك وأخِفهم في الله)

صلة الأرحام

(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الرّحم معلّقةٌ بالعرش تقول من وَصَلَني وصلَهُ اللّهُ ومن قَطَعَني قطَعَه الله) .

وفي رواية أخرى : عن أبي هريرة رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلَق الخلْقَ حتّى إذا فرَغ منهم قامتِ الرّحِم) فقالتْ : هٰذا مقامُ العائذِ مِن القطيعة ، قال : نعم أما ترضَيْن أن أَصِلَ مَن وَصَلَك وأَقْطَعَ من قَطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فَذَاكَ لَك ثم قال رسول الله ﷺ : إقرؤُا إن شِئْتُم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِيْنَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ علىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

هذا الحديث يدلّ على وجوب صلة الرحم ولا خلاف في

(١) سورة محمد الآية « ٢٢ » .

ذلك عند أهْل العلم . والرحم التي توصل وتقطع وتبر إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم وإنما هي قرابة ونسب تجمعه رحم والدة ويتصل بعضه ببعض فسمي ذلك الاتصال رحماً والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها ضرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك ، والمرادُ تعظيمُ شأنِها وفضيلةُ واصلها وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم ، لهذا سمي العقوق قطعاً ، والعق : الشق ، كأنه قطع ذلك السبب المتصل . ويجوز أن يكون المراد قام ملك من الملائكة وتعلق بالعرش وتكلم على لسانها بهذا بأمر الله تعالى .

وفي رواية أخرى عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال الله عزّ وجلّ : (أنا الرحمٰن ، وأنا خلقت الرحم ، واشتققت لها من اسمي) .

وقد أكد ﷺ وجوب صلة الأرحام حتى ولو لم يقوموا هم بهذه الصلة بأن تأخروا أو قصروا بل إن فضل الصلة لا يثبت كاملاً إلاّ إذا قام هو بما لم يقوموا هم به ، ولم ينظر لمعاملتهم له ولم يراقب حالهم معه . وبهذا يتحقق بالفوائد الكبرى وتمام الخير والبشرى الذي يفوز به دونهم ويحوزُه بطيبِ نفسهِ وسلامةِ قلبه . ويبين ﷺ ذلك بقوله : (ليس الواصل بالمكافىء ولكنّ الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها) .

فليس الواصل الذي يصل من يصله فلا يعتد بالواصل بصلتك إلى وصلك ولكن الواصل من يتفضل على صاحبه بمعروفه ، بل

يعطي من منعه من معروفه . قال الحافظ : ههنا ثلاث درجات : واصل ، ومكافىء ، وقاطع . فالواصل من يتفضل ولا يُتفضل عليه والمكافىء من يصل ولا يزيد على ما يأخذ . والقاطع الذي يُتفضل عليه وهو لا يتفضل . وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين . فمن بدأ حينئذ فهو الواصل فإن جوزي سمي من جازاه مكافئاً .

ويدل على هذا المعنى أيضاً ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال :

يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيؤون إليّ ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليّ (أي يسيؤون) فقال النبي ﷺ : (لئن كنت كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم) . والمَلُّ : بفتح الميم الرماد الحار . وتُسِفُّهم أي تطعمهم . والظهير : المعين والدافع لأذاهم .

ومعناه : كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه . وقيل : معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف المل . وقيل ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالملّ يحرق أحشاءهم .

ويؤكد ﷺ وجوب صلة الأرحام حتى ولو كان ظالماً متعدياً .

فقد جاء في الحديث عن البراء قال جاء أعرابي فقال يا نبيَّ الله علِّمني عملاً يُدخِلُني الجنةَ فقالَ له ﷺ : (لَئِنْ كُنتَ أَقْصرتَ الخطبةَ لَقد أَعرضتَ المسألة) والمعنى أنّ السُّؤال قليل اللفظ ولكنَّ الجواب عليه كبير . ثم أجابه ﷺ ببيان بعض الأعمال المناسبة لحال السائل . والتي هي سبب لدخول الجنة . فقال : (أَعتق النَّسمةَ وفُكَّ الرقبة قال : أو لَيْسَتَا واحداً ؟ قال : لا . عِتْقُ النسمةِ أن تُعتِق النَّسمةَ . وفَكُّ الرقبة أن تُعِين على الرقبة وَالْمَنِيْحَةُ الرغوب والفيء على ذي الرحم فإن لم تُطِق ذلك فَأْمُرْ بالمعروف وَانْهَ عن المنكر فإن لم تُطِق ذلك فكفَّ لسانك إلاَّ من خير) أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان . ورواه الطحاوي بلفظ : (عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها . وفك الرقبة أن تعين في تخليصها من بدل كتابةٍ أو قَود أو غُرم والمِنْحة الركوب والفيء على ذوي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف) . الحديث .

والمراد بقوله (الفيء على ذي الرحم) العطف عليه بالبر .

صلة الأرحام

(٢)

قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى (أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته) .

وقال ﷺ : (من سره أن يُنسأله في أثره أو يوسعَ له في رزقه فليصل رحمه) .

وقيل لرسول الله ﷺ : أي الناس أفضل ؟ قال : (أتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر) .

وقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ : (أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا) .

وقال ﷺ : (إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمها وصلها) .

وقال عليه الصلاة السلام : (إن أعجل الطاعة ثواباً صِلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً ، فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم) .

وقال زيد بن أسلم لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج فقال عليه السلام : إن الله قد منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم .

وقالت أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قدمت أمي فقلت : يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي مشركة أفأصلها ؟ قال : نعم ، وفي رواية : أفأعطيها ؟ قال نعم صليها .

قال عليه السلام : الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مما تُحِبّونَ ﴾[1] قال : يا رسول الله ، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين، فقال عليه الصلاة السلام : (وجب أجرك على الله فاقسمه في أقاربك .

وقال عليه الصلاة السلام : (أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح) .

وهو في معنى قوله : (أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك)

وروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

وقد حذر ﷺ من قطيعة الرحم وبين ما يحوط به من المصائب والبلايا . فهو ـ قاطع الرحم ـ محروم من دخول الجنة لقوله ﷺ (لا يدخل الجنة قاطع رحم) رواه مسلم .

فإذا استحلّ القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها

(١) سورة آل عمران الآية « ٩٢ » .

فهو كافر مخلد في النار . لا يدخل الجنة أبداً لأنه جحد أمراً قطعيًا من الدّين ، ورفض ما ثبت باليقين من كتاب رب العالمين . أما إذا لم يستحل ذلك فإنه يستحق العقوبة ، ومعنى قوله حينئذ لا يدخل الجنة . أي في أول الأمر مع السابقين ، بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى .

وقاطع الرحم بعيد عن الرحمة مقطوع الصلة بالله سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث أن الحق سبحانه وتعالى يقول : (أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك) .

وقاطع الرحم شؤم على جماعته الذين معه وبلاء عليهم لما جاء في الحديث عن عبد الله بن أبي أوفى عن النبي ﷺ قال : (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم) .

قال الطيبي : يحتمل أن يراد بالقوم الذين يساعدونه على قطيعة الرحم ولا ينكرون عليه ، ويحتمل أن يراد بالرحمة المطر وأنه يحبس عن الناس شؤم التقاطع ، ولا يدخل في القوم عبد قطع من أمر الله بقطعه ، لكن لو وصلوا بما يباح من أمر الدنيا لكان فضلاً كما رقّ ﷺ لأهل مكة لما سألوه برحمهم بعد ما دعا عليهم بالقحط ، وكما أذن لعمر ولأسماء رضي الله عنهما .

وقاطع الرحم تعجّل له عقوبته في الدنيا . . وذلك كعقوق الوالدين فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من ذنب أحرىٰ أن يعجِّل اللَّهُ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة . من قطيعة الرحم والبغي) .

وقاطع الرحم عمله مردود . فلا يقبل الله له عمل .

وقد حضر أبو هريرة رضي الله عنه مجلساً فلما جلس مع الحاضرين قال : أقسم على كل قاطع أن يقوم من عندنا يعني طلب من كل قاطع رحم أن يفارق مجلسهم . كأنه عرف بالإشارة أو بالكرامة أن في مجلسهم قاطع رحم ، فما أحب أن يجالسهم لشؤمهم وشرهم ، وكرر الطلب ثانية فما قام أحد . فكرره ثالثة فقام فتي من المجلس وظهر أن له عمة قطعها منذ سنتين فخرج خائفاً تائبا وجاء إليها ووصلها وأحسن إليها فتعجبت منه وسألته عن السبب فأخبرها . فقالت له ارجع إليه فسأله لم قال ذلك ؟ فرجع الفتى إلى أبي هريرة وسأله فقال له : سمعت النبي ﷺ يقول : (إن أعمال بني آدم تعرض على الله تبارك وتعالى عشية كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمَلُ قاطعِ رحم) [الأدب المفرد وأحمد] .

فوائد صلة الأرحام

وفي سبيل التأكيد على صلة الأرحام بيّن لنا صلوات الله وسلامه عليه الفوائد المترتبة على ذلك لتزداد رغبة المسلم في فعل هذا الخير لتحصيل ذلك الفضل وإدراك ذلك الثواب .

وأول فائدة يستفيدها المسلم في هذا الباب هي أن الله سبحانه وتعالى يصله إذْ قال للرحم : (أما ترضين أن أَصِل من وَصلكِ) . قال العلماء : وحقيقة الصلة العطف والرحمة . فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفهِ بهم ورحمتهِ إياهم وعطفهِ بإحسانه ونعمه أو صِلتهُم بأهل ملكوته الأعلى وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته .

ومن فوائد صلة الأرحام أنها تزيد في العمر وبها يوسع في الرزق كما قال ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه : (من أحب أن يُبسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه) .

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سَرّه أن يُبسَط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه) .

ومعنى « ينسأ له في أثره » يؤخر له . أصله من أثر مشيه في الأرض فإن من مات لا تبقى له حركته فلا يكون لقدمه أثر حركة وسمي الأجل بالأثر لأنه يتبع العمر . وكذلك الأثر ذكره بعده . والمعنى أن يرزق ذرية صالحة يدعون له من بعده . أولا يقع الخلل في فهمه وعقله بل يبارك له في فهمه وعقله كما يبارك له في رزقه

وعلمه وولده وأوقاته بحيث يصرف الأوقات فيما ينفعه ويصُونُه عما يضره ويتمتعُ ببر أولاده وتقرُ عينُه بحسن فِعالِهم وعذوبةِ مَقالهم وكذا ببر من يمونُه من الأقارب والأصحابِ في حياته وكذا بعدَ مماته فيبقى بعده الذكر الجميل . ويحتمل أن يزاد في الحقيقة ولكن هذه الزيادة بحسب علم المَلَك الموكل عليه لا بحسب علم الله أي عمره ستون سنة إن لم يصل رحمه وإن وصل فيزيد الله في عمره إلى سبعين سنة.

ويحتمل أن تكون الزيادة بمعنى بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت وهذا قول ضعيف .

ومن فوائد صلة الأرحام أنها تزيد في المال ويكتسب بها الإنسان محبة أهله . فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : من اتقى ربه ووصل رحمه أُنسىء في أجله وثرىٰ مالُه وأحبه أهلُه (الأدب المفرد) .

ومن فوائد صلة الأرحام أنها تقرب إلى الجنة وتباعد من النار فهي من أسباب السعادة وأبواب الزيادة فعن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابياً عرض للنبي ﷺ في مسيره فقال : أخبرني ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟ قال : (تعبد الله ولا تشركُ به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم) [الأدب المفرد وهو في الصحيحين].

وصلة الأرحام درجات بعضها أرفع من بعض . وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً ، ولو قَصّر عما يقدر عليه وينبغي له لا

يسمى واصلاً . واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها . فقيل هو كل رحم مَحرَم بحيث لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى حرمت مناكحتهما . . وقيل هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث يستوي المَحرم وغيره ويدل عليه قوله ﷺ : (ثم أدناك أدناك) وهذا هو الصواب ومما يدل على هذا الحديث الذي جاء في أهل مصر فإن لهم ذمةً ورحماً . وحديث إن أبر البر أن يصل أهل ودّ أبيه مع أنه لا محرمية .

ومما يدلّ على أن صلة الأرحام درجات ما جاء في الحديث أن بكر بن الحارث قال : يا رسول الله من أبرّ ؟ قال :(أمَّك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك حق واجب ورحم موصولة) [رواه مسلم]. وما جاء أيضاً عن المقداد بن معدي كرب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب) [رواه ابن ماجه وأحمد والحاكم] .

عقوق الوالدين

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، ثلاثاً . قلنا بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين . وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) . رواه البخاري ومسلم .

أي تمنينا أنه يسكت إشفاقاً عليه لما رأوا من أثر إنزعاجه في ذلك . قال ابن دقيق العيد : إهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس والتهاوُن بها أكثرُ ومفسدتها أيسر وقوعاً لأن الشركَ ينبو عنه المسلم والعقوق ينبو عنه الطبع وأما قولُ الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسن الإهتمام بها وليس ذلك لِعظمِها بألنسبة إلى ما ذكر معها .

وهذا الحديث صريح في تسمية عقوق الوالدين كبيرة بل هو من أكبر الكبائر .

فعن عبدِالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الكبائرُ الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتلُ النفس واليمين الغموس) . رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر . فقال : (الشرك بالله وعقوقُ الوالدين) الحديث . رواه البخاري ومسلم والترمذي .

وفي كتاب النبي ﷺ الذي كتبَه إلى أهل اليمن وبعث به مع عمروِ بن حزام : (وإن أكبرَ الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراكُ بالله وقتلُ النفس المؤمنةِ بغير الحق والفرارُ في سبيل الله يومَ الزحف وعقوقُ الوالدين ورمي المحصنة وتعلُّم السحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم) . الحديث . رواه ابن حبان في صحيحه .

والعاق لا ينظر الله إليه يوم القيامة والجنة عليه حرام بل ولا يجد ريحها وإن ريحها ليُشم من مسيرة خمسمائة عام كما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان عطاءه . وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه والديوث والرَّجلة) . رواه النسائي والبزار واللفظ له بإسنادين جيدين . والحاكم وقال : صحيح الإسناد وروى ابن حبان في صحيحه شطره الأول .

[الديوث] بتشديد الياء هو الذي يقر أهله على الزنا مع علمه بهم .

[والرجلة] بفتح الراء وكسر الجيم هي المترجلة المتشبهة بالرجال .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثَة حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة مدمن الخمر والعاقُ والديوث الذي يقر الخبث في أهله . رواه أحمد واللفظ له والنسائي والبزار والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يُراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحهَا منانٌ بعمله ولا عاقٌ ولا مدمنِ خمر) . رواه الطبراني في الصغير .

والعاق ملعون على لسان رسول الله ﷺ فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله سبعة من فوق سبع سموات وردد اللعنة على واحد منهم ثلاثاً ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال : ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من ذبح لغير الله ملعون من عق والديه) . الحديث رواه الطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أبي عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لعن الله من ذبح لغيرِ الله ولعن الله من غيّر تُخومَ الأرض ولعن الله من سب والديه) . الحديث رواه ابن حبان في صحيحه .

وسواء سبهما مباشرة أم تسبب في إيصال ذلك إليهما بأن

يؤذي غيرَه ويسبَّه أو يسب والديْه فيرد عليه الشَّتمةَ بمثلها فيكون قد تسبب في سب والدي نفسه وكأنه سبهما مباشرة كما جاء في الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من الكبائر شتمُ الرجلِ والديه قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يسب أبا الرجل فيسب أباهُ ويسب أمه فيسبُ أمه) . رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

وفي رواية للبخاري ومسلمٌ : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه . قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .

والعاق ينال جزاءه في الدنيا قبل مماته من تحقيرٍ وفقرٍ مُدقعٍ وأمراضٍ وسخطِ أهله وإبعادِه فقد جاء في الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوقَ الوالدين فإن الله يعجلُه لصاحبه في الحياة قبل الممات) . رواه الحاكم والأصبهاني كلاهما من طريق بكار إبن عبد العزيز . وقال الحاكم صحيح الإسناد .

والعقوق يجلب سوء الخاتمة فلا يمكن أن ينطق بالشهادتين . روي عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فأتاه آت فقال : شاب يجود بنفسه فقيل له : قل لا إله إلا الله فلم يستطع فقال : كان يصلي ؟ فقال : نعم . فنهض رسول الله ﷺ ونهضنا معه فدخل على الشاب فقال له : قل لا إله إلا الله فقال : لا أستطيع . قال : لم ؟ قال : كان يعق والدته . فقال النبي ﷺ :

أحية والدته ؟ قالوا : نعم . قال : أدعوها . فَدَعُوها فجاءت فقال : هذا ابنك ؟ فقالت : نعم . فقال لها : أرأيتِ لو أُجِّجت نار ضخمة . فقيل لك ; إن شفعتِ له خليْنا عنه وإلاّ حرقناه بهذه النار أكنت تشفعين له ؟ قالت : يا رسول الله إذاً أشفع له . قال : فأشهدي الله وأشهديني قد رضيت عنه . قالت : اللهم إني أشهدك وأشهد رسولك أني قد رضيت عن ابني .

وفي رواية أخرى أنها قالت إنه عاق وإنه كان يقدم زوجته عليّ يرضيها ويغضبني ولهذا انعقد لسانه عند الشهادتين .

وفي سبيل التأكيد على بر الوالدين يخبرنا ﷺ أن العبادة لا تكفي مع العقوق .

فقد جاء في الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت رمضان فقال النبي ﷺ : (من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب أصبعيه ـ ما لم يعقَّ والديه)[1] .

وروى ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لا ينفع معهن عمل صالح : الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف) .

وهذا برهان صادق على أن الفروض لا تغني مع العقوق ولا بد من حسن الصلة مع الله عز وجل وحسن المعاملة للوالدين ليتم إيمان المرء وعمله .

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٣٢٩ .

ولذلك فقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عبادة الله وحده مقرونة بالإحسان إلى الوالدين وهذا القِران دليل ما بينهما من تلازم وارتباط ، إذ لا تكفي العبادة مع العقوق ولا يغني الإحسان مع الإشراك لأن من طبيعةِ العبادة الامتثال والطاعةَ ولا تتم إلا بهما . والعقوق عصيانٌ واستكبار فهو خارج عن طبيعة العبادة ومعناها .

من بر البر صلة أهل الوالدين

قال رسولُ الله ﷺ : (إن أبر البر أن يصلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه) . أخرجه مسلم .

لقد دفعَ الإسلامُ إلى المحافظةِ على مودةِ أصدقاءِ الآباء وحث عليها ، ليستمر الترابط الأخوي بين الناس وتزيدَ الصلة والإلفة . وقد سمَّى ﷺ المحافظةَ على هذا الأدبِ (أبرَّ البر) وذلك لأنه إذا حفظ أباه وهو غائب في أصدقائِه وأحبابِه ، فهو لِحفظ حق أبيه أحرص .

وقد جاء أن عبدَالله بن عمر لقي أعرابياً في سفره إلى الحج فعرف أن أباه صديقَ أبيهِ عمر ، فسلّم عليه عبدُالله وحمله على حمارٍ كان يركبه ، وأعطاهُ عمامةً كانت على رأسه قال ابن دينار : فقلنا له أصلحكَ الله فإنهم الأعراب وهم يَرْضَون باليسير . فقال عبدُالله بن عمر إن أبا هذا كان وُدَّاً لعمرَ بنِ الخطاب وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (إن أبر البر صلةُ الولد أهلَ وُدِّ أبيه) . رواه مسلم .

وعن أبي بردة قال : قدمتُ المدينة فأتاني عبدالله بن عمر

فقال : أتدري لم أتيتك ؟ قال : قلتُ : لا . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوانَ أبيه بعده) . وإنه كان بين أبي عمرَ وبينَ أبيكَ إخاءٌ فأحببتُ أن أصل ذاك . رواه ابنِ حبان في صحيحه .

وقد توعد ﷺ مَن قطع صلَة أهل ود أبيه بإطفاءِ نوره فقال : (إحفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفِىءَ الله نورك) . رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

وقد أخبرنا ﷺ أن المحبةَ يرثها الأبناء عن الآباء وتستمر متسلسلة فيهم فقال : (إن الودَّ يُتوارث) . أخرجه الحاكم والبيهقي .

ومن فضل الله تعالى أن باب البر لا يزالُ مفتوحاً أمام الإنسان الذي مات والداه وقد حُرم خيرَ برهما . وقال ﷺ : (من برَّ قسمهما وقضى دينَهما ولم يستسب لهما كُتب باراً وإن كان عاقاً في حياته ، ومن لم يبر قسمهما ويقضي دينهما واستسب لهما كُتب عاقاً وإن كان باراً في حياته

رواه الطبراني في الأوسط .

وهذه فرصة سانحة لمن فاتَه الخير في حياةِ والديه فلم يعملْ على إرضائهما ورحمةٌ من اللهِ واسعة لمن قصَّر عن مقام الأبرار . والولدُ يشعر بحسرةٍ كبيرةٍ بعد وفاةِ والديه ، ولا سيما إن كان مسيئاً إليهما في حياتِهما ، لأنه لم يعرف قيمتهما إلا بعد زوالهما . ولقد وصفَ له هذا الحديثُ الشريف ما يزيلُ من نفسِه الحسرةَ والندَامة وما يُعوض عليه ما فاتَه من خيرات .

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة السَّاعدي رضي الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما . رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وزاد في آخره : قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه. قال : فاعمل به .

والمراد بالصلاة عليهما الدعاءُ لهما بالنعيم والقبول والرحمة والغفران وهذا الحديث فيه الأمر بالاستغفار لهما ومعناه أن يطلب من الله تعالى أن يعفو عن زلاتِهما وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : اللهم اغفر لأبِي هريرة ولأمّ أبي هريرة ولمن استغفرَ لهما . يقول محمد بن سيرين فنحن نستغفر لأبي هريرة ولأمّه حتى ندخل في دعوته (رواه البخاري في الأدب المفرد) .

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه : تُرفع للميت بعد موتِه درجتُه فيقول : أي رب ! أيُّ شيء هذا ؟ فيقال ولدك ، استغفر لك . (أخرجه ابن ماجه ومالك في الموطأ) .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأنَ الميت ينتفعَ بدعاءِ غيره واستغفارِه له وخصوصاً دعاءَ الولدِ لوالِده وقد صحَّ في الحديثِ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات ابنُ العبد انقطع عنه عملُه. إلاّ مِنْ ثلاث : صدقةٍ جارية أو علمٍ ينتفعُ به أو ولدٍ صالح يدعو له) (أخرجه مسلم) .

قال العلماء : صلاحُ الولد لا يكفي في جريانِ الثواب لوالده بل لا بد من دعائِه له والصحيح أنه يحصلُ الثوابُ بكل عملٍ صالحٍ من الولدِ سواءٌ دعا لأبيهِ أو لم يَدْعُ لأن الله يُثيب العبد بكل فِعل يتوقف وجودُه يوجهِ ما على كسبهِ مباشرةً أو تسبباً .

وليس بُر الوالدين مقصوراً بعد موتهما على الدعاءِ لهما فحسب بل يصوم ويحج ويعتمر عنهما ويقرأ القرآن ثم يطلب من الله تعالى أن يهب ثواب ذلك لهما ، ويتصدق عنهما .

قال بريدة رضي الله عنه : بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت : إني تصدقتُ على أمّي بجارية وإنها ماتت ـ أي أُمها ـ فقال : وجبَ أجرُك وردها عليك الميراثُ . قالت : يا رسول الله إنه كان عليها صومُ شهر أفأصُومُ عنها ؟ قال : صومي عنها . قالت : إنها لم تحج قط أفأحجُ عنها ؟ قال : حجي عنها .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن امرأةً قالت : يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صومُ نذرٍ أفأصومُ عنها ؟ قال : أرأيت لو كان على أمكِ دين فقضيتِه أكان يؤدي ذلكَ عنها . قالت : نعم ، قال : فصومي عن أمكِ .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيهِ عن جده أن رسول الله ﷺ قال : (ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه ويكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(من حجّ عن والديهِ أو قضى عنهما مَغرماً بعثه الله يومَ القيامة مع الأبرار)[رواه الطبراني في الأوسط وفيه جبلة بن سليمان وهو متروك] وروي أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة ؟ قال : هل لكَ من أمٍّ ؟ قال : لا . قال : وهل لكَ خالة . قال : نعم . قال فبِرَّها .

وقد كان السلف رضي الله عنهم يجتهدون في الدعاء لوالديهم ويعلمون إخوانهم وأحبابهم كيفية ذلك ومنه هذا الدعاء اللهم ارحم والدينا « ثلاثاً » ، واغفر لهم ، وارْض عنهم ، رضا تحل به عليهم جوامع رضوانك ، وتَحْلهم به دارَ كرامتك وأمانك ومواطنَ عفوك وغفرانك وأدِرَّ عليهم لطائفَ برك وإحسانِك اللهم اغفر لهم مغفرةً جامعةً تمحو بها سالفَ أوزارِهم وسَيِّءَ إصرارِهم وارحمهم رحمةً تُنير لهم بها المضجعَ في قبورهم . وتؤمنَّهم بها يومَ الفزع عند نشورِهم . اللهم تحنن على ضعفِهم كما كانوا على ضعفنا متحنِّنين وارحم انقطاعَهم إليكَ كما كانوا لنا في حال انقطاعنا إليهم راحمين . وتعطفْ عليهم كما كانوا علينا في حال صِغرِنا متعطفين . اللهم احفظ لهم ذلك الود الذي أشربتَه قلوبهم ، والحنانَة التي ملأتْ بها صدورَهم واللطفَ الذي شغلَت به جوارحَهم واشكر لهم ذلك الجهادَ الذي كانوا فينا مجاهدين ، ولا تضيِّعْ لهم ذلك الاجتهاد الذي كانوا فينا مجتهدَين وجازِهم على ذلك السعيَ الذي كانوا فينا ساعين ، والرعيَ الذي كانوا لنا راعين، أفضلَ ما جزيت به السّعاة المُصلحين والرعاةَ الناصحين . اللهم بِرَّهم أضعاف ما كانوا يبرُّوننا وانظرْ إليهم بعينِ الرحمة كما كانوا ينظروننا ، اللهم هَبْ

لهم ما ضيعوا من حقِ رُبوبيتك بما اشتغلوا به في حق تربيتنا وتجاوزْ عنهم ما قصّروا فيه من حق خدمتك بما آثرونا به في حق خدمتِنا ، واعفُ عنهم ما ارتكبوا من الشبهاتِ من أجل ما اكتسبوا من أجلِنا . ولا تؤَاخذهم بما دعَتهم إليه الحمية من الهوى لما غلب على قلوبِهم من محبتنا ، وتحمل عنهم الظُّلامات التي ارتكبوها فيما اجترحوا لنا وَسَعَوْا علينا ، والطفْ بهم في مضاجع البِلى لطفاً يزيد على لطفهم في أيام حياتهم بنا . اللهم وما هدَيتنا من الطاعات ، ويسرته لنا من الحسنات ، ووفقتنا له من الحسنات ، ووفقتنا له من القربـات فنسألك اللهم أن تجعلَ لهم منها حظاً ونصيباً وما اقترفناه من السيئات ، واكتسبناه من الخطيئات وتحملناه من التبعـات فلا تلحقهم منا بذلك حُوباً ، ولا تَحمل عليهم من ذنوبنا ذنوباً ، اللهم وكما سررتهم بنا في الحياةِ فسُرَّهم بنا بعد الـوفاة اللهم ولا تبلغهم من أخبارِنا ما يسوءُهم ، ولا تُحملهم من أوزارِنا ما ينوءهم ، ولا تخزهـم بنا في عسكرِ الأموات بما نُحدث من المخزيات ونأتي من المنكرات . وسر أرواحَهم بأعمالنا في ملتقى الأرواح ، إذا سُر أهلُ الصلاح بأبناءِ الصلاح ، ولا توقفهم منا على موقفِ افتضاح ، بما نجترح من سوءِ الاجتراح ، اللهم وما تلونا من تلاوةٍ فزكيتها ، وما صلينا من صلاة فتقبلتها وما تصدقنا من صدقةٍ فنميتها ، وما عملنا من أعمال صالحة فرضيتها ، فنسألك اللهم أن تجعل حظهم منها أكبر من حظوظنا ، وقِسْمهم منها أجزَل من أقسامنا ، وسهمهم من ثوابها أوفرَ من سهامنا . فإنك وصَّيْتنا ببرهم ، وندبتنا إلى شكرِهم . وأنت أولى بالبر من البارين ، وأحق بالوصل من

المأمورِين . اللهم اجعلنا قرةَ أعين لهم يومَ يقوم الأشهاد ،وأسمعهم منا أطيب النداء يوم التناد . واجعلهم بنا من أغبطِ الآباء بالأولاد ، حتى تجمَعنا وإياهُم والمسلمين جميعاً في دار كرامتك ، ومستقرِ رحمتك ومحلِ أوليائك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً [1]﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ على المُرْسَلِيْنَ * وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْن ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمـي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) سورة الصافات الآية « ١٨١ - ١٨٣ » .

فضل الأم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . [رواه البخاري] .

قال الله سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين :

(1)﴿ وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالدَيهِ حَملَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصالُه في عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيكَ إليَّ المَصيرُ وإِنْ جَاهَداكَ عَلَى أَنْ تُشرِكَ بِي مَا لَيسَ لكَ بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصَاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْروفاً واتَّبعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إليَّ ثُمَّ إليّ مَرجِعُكُم فأُنَبِّئُكم بما كُنتُم تَعمَلونَ ﴾ .

ومعنى قوله وهناً على وهن أي ضعْفاً على ضعف .

والمعنى : لزمها بحملها إياه أن تَضعفَ مرةً بعد مرة ، فلا

---

(1) سورة لقمان الآية « ١٤ ـ ١٥ » .

يزال ضعفها يتزايد من حين الحمل إلى الولادة ، لأن الحملَ كلما عظُم ازدادت به ثقلاً وضَعْفاً ثم هي في أصل خِلقتها ضعيفةُ البنية والحمل يزيدها ضعفاً .

وسبب نزول هذه الآيات أن سعد بن أبي وقاص قال :

كنت رجلاً بَرًّا بأمي ، فلما أسلمتُ ، قالت يا سعد : ما هذا الدين الذي أراك قد أحدثت ! لتَدعنّ دينكَ هذا أولا آكلُ ، ولا أشربُ حتى أموت فتعير بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلتُ لها : يا أمه لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً !!

قال : فمكثْتُ يوماً وليلة ولم تأكلْ فأصبحت قد جَهِدت ، فمكثت يوماً آخرَ وليلةً ولم تأكل ، فأصبحتْ وقد جَهِدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأْكل ، فأصبحت قد اشتدّ جهْدها . . فلما رأيت ذلك جئت إليها فقلت : يا أمه تعلمين والله ، لو كانت لك مائُه نفس أي [روح] فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً، فإن شئت فكلي وإن شئت فدعي قالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموتَ أو تكفر . قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصا ثم أوْ جروها فلما رأت صلابتَه في دينِهِ أكلت فأنزل الله عز وجل ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ على أَنْ تُشْرِكَ بي ﴾ الآية .

وقد خصّ الله تعالى الأمم في هذه الآيات بمزيدٍ من العناية والاهتمام فجعل حقها أعظمَ من حق الأب لما تحملّتهُ من الشدائد والأهوالِ ولما قاسته من الآلامِ في سبيلِ التربية لوليدِها . فحقّ

الأم على ولدِها عظيم وفضلها عليه كبير وجسيم ، إذ هي السببُ المباشر في حياته بعد الله عز وجل فلولا رعايتُها وحنانُها ، ولولا تحملها المتاعبَ والآلام لما تربىّ وليد ، ولا عاش إنسان .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . رواه البخاري .

هذا الحديث يبين بوضوح ما تستحقه الأم من بر وصلة ، وخدمة وطاعة ، لقاء ما بذلته من جهد ونصب فخصها الشرع بثلاثة أرباع الحق وجعل للأب لقاء إنفاقه وعطفه وتوجيهه ربعاً واحداً .

وعن بَهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك . قلت : من أبر ؟ قال : أمك . قلت : من أبر ؟ قال أمك . قلت : من أبر ؟ قال : أباك ثم الأقرب فالأقرب .

وقد نقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الأم تفضل في البر على الأب .

عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه شهد مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ، فكان أول ما تفوه به أن قال (إن الله عز وجل يوصيكم بأمهاتكم) . [رواه الطبراني] .

وعن المقدام بن معدِ يكرب عن النبي ﷺ قال : (إن الله يوصيكم بآبائكم . إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم

بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب) .

فالأم مقدمة في الإجماع في البر على الأب وأن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر وذلك لتحمل المشاق في الحمل والوضع حتى تكاد تموت ولا أقل أن تذوقه في كل مرة إذا ضربها الطلق ، ثم المحنة زمن الرضاع إلى أن يكبر الولد ويستغني عن خدمتها فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في الإنفاق والتربية وأنواع من المؤنة والخدمة ما داما حيَّين ، أخذ ذلك من تكرار حق الأم والأظهر أن يكون تأكيداً ومبالغة في رعاية حق الأم وذلك لتهاون أكثر الناس حق الأم بالنسبة إلى الأب ، لأن أمر الأم كله في البيت تحت الستور ولا يطلع عليه الناس فيجترىء الناس على عقوقها أكثر من عقوق الوالد حياء من الناس ، وكذا قوته تزجر عن الجرأة عليه وضعفها يحمل الدنيء على الإساءة إليها ولا يبعد أن الشريعة بالغت في البر بها أكثر من البر بالأب مواساة لها ومراعاة لضعف قلوب النساء وشفقة على الولد مع أن الأب ليس أنقص حقا من حقوقها لأن الأم للين طبعها وضعف بنيتها ولا تستطيع أحياناً أن تتحمل إباءه وسوء خلقه فتعجل أن تغضب فتسرع بالدعاء عليه . والمذكور في كتب الفقه أن حق الوالد أعظم من حق الوالدة وبرها أوجب .

وقال الطحاوي : حق الوالدة على الولد يتجاوز حق الوالد عليه ولذلك فإنه مهما قدم الإنسان من شيء في هذا الباب فإنه عاجز عن الوفاء بحق البر وقد بين ذلك صلوات الله عليه وسلامه

ففي الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني حملت أمي على عنقي فرسخين في رمضاء شديدة لو ألقيت فيها بضعة من لحم لنضجت فهل أديت شكرها ؟ فقال : (لعله أن يكون لطلقة واحدة) . [رواه الطبراني في الصغير] .

وعن أبي بردة قال : سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن عمر رجلاً يمانياً يطوف بالبيت ، حمل أمه وراء ظهره يقول :

إني لهـا بعيـرهـا المـذلّـل إن أذعرت ركابها لم أذعر
حملتهـا أكثـر ممـا حملت فهل ترى جازيتها يا ابن عمر

ثم قال : يا ابن عمر ؟ أتراني جزيتها ؟ قال : لا ولا بزفرة واحدة ثم طاف ابن عمر فأتى المقام فصلى ركعتين ثم قال : يا ابن أبي موسى ، إن لكل ركعتين تكفران ما أمامهما .

ومعنى قوله أذعرت أي اخيفت ، والمراد بالركاب الإبل التي يسار عليها ، الواحدة راحلة ، يشبه نفسه بالمطية تشبيها بليغاً إذ الركاب صفة لها يعني أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة ولا يسأم منها كغيره فإن حملها إياه وإرضاعها أكثر من برّه بها .

وروي عن بعض العرب أنّه حمل أمَّه إلى الحج على ظَهره . وهو يقول في حدائه :

أحمل أمي وهي الحمّالة ، تُرضِعُني الدِّرَّةَ والعُلالة ولا يُجَازَى وَالِد فِعاله .

فوائد بر الوالدين

وفي بر الوالدين من الفوائد الدنيوية والأخروية ما تضمن للبارّ السعادة الأبدية والفلاح والنجاح والتوفيق الدائم الكامل .

فبرّ الوالدين سبيل دخول الجنة . قال ﷺ : (من أصبح مُرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

وقال ﷺ : (الجنة تحت أقدام الأمهات . .) . أخرجه الخطيب في جامعه والقضاعي في مسنده . وفي رواية . . عن طلحة ابن معاوية السلمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إني أريد الجهاد في سبيل الله قال : أمك حية ؟ قلت : نعم . قال النبي ﷺ (إلزم رجلها فثم الجنة) . رواه الطبراني .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : (هما جنتك ونارك) . رواه ابن ماجه من طريق علي بن يزيد عن القاسم .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال : هل لك من أم ؟ قال : نعم قال : (فالزمها فإن الجنة عند رجليها) رواه ابن ماجه والنسائي واللفظ له والحاكم وقال : صحيح الإسناد ورواه الطبراني بإسناد جيد ولفظه قال : أتيت النبي ﷺ أستشيره في الجهاد فقال النبي ﷺ ألك والدان ؟ قلت : نعم قال : إلزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما .

وجاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما يشكو إليه ذنوباً وقع فيها فقال له ابن عمر : أتفرق[1] من النار وتحب أن تدخل الجنة ؟ قلت إي والله قال : أحي والداك ؟ قلت : عندي أمي قال : (فوالله لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبتَ الكبائر) [رواه البخاري في الأدب المفرد] .

وقال ﷺ : (الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دع) [رواه ابن حبان في الصحيح وابن ماجه والترمذي وصححه] وفي رواية : الأم .

وبر الوالدين يزيد في العمر . ومعنى ذلك أن الله تعالى يبارك له في عمره حتى يفعل فيه من جلائل الأعمال ما لا يفعله ذووا الأعمار الطوال . قال رسول الله ﷺ (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر) [رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه] .

وبر الوالدين يزيد في الرزق . فعن أنس رضي الله عنه قال :

---

(١) أتفرق : أي أتخاف .

رسول الله ﷺ : (من سره أن يمد له في عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه . .) [رواه أحمد] .

والبار بوالديه مبشر بشجرة في الجنة تسمى طوبى . قال ﷺ :(من بر والديه طوبى له ، زاد الله في عمره . .) [رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم] .

والبار بوالديه مبشر بأنه سيعامله أولاده بمثل ما عامل به أبويه فمن زرع حصد والجزاء من جنس العمل . قال ﷺ : (بِرُّوْا آبَاءَكُمْ تَبُرَّكُمْ أَبْناؤُكُمْ وَعِفُّوْا تعفّ نِساؤُكُمْ . .) [رواه الطبراني بإسناد حسن . ورواه أيضاً هو وغيره من حديث عائشة] .

وهذا فيه بِشارة أخرى للبار بأن يكون أبناؤه نجباء طاهرين هداة موفقين تقر بهم عينه وتسر بهم نفسه .

وفي بر الوالدين استجلاب رضا الله سبحانه وتعالى . قال ﷺ : (رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ . وَسُخْطُ اللَّهِ فِي سُخْطِ الْوَالِدِ) . [رواه الترمذي] ورواه البزار بلفظ : (رِضَا الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالى فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ . وَسُخْطُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى فِي سُخْطِ الْوَالِدَيْنِ) .

وبر الوالدين يكفر السيئات ويمحو الخطايا ويغفر الذنوب . فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه أتاه رجل فقال : إني خطبت امرأة فأبت أن تَنكحني وخطبها غيري فأحببت أن تَنكحه فغرت عليها فقتلتها فهل لي من توبة ؟ قال : أمّك حية ؟ قال : لا قال : تب إلى الله عز وجل وتقرب إليه ما استطعت . فذهبت فسألت ابن عباس لم

سألته عن حياة أمه ؟ فقال : إن لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة .

وبر الوالدين يزيل الهموم ويجلب اليسر ويضمن النجاة وهو أقرب الأعمال التي يتوسل بها إلى الله تعالى لقضاء الحوائج وكشف الكرب ودفع البلاء . وأظهر دليل على هذا حديث الثلاثة الذين قص علينا سيدنا رسول الله ﷺ خبرهم بقوله : (إنطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا إنه لا ينجيكُم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب شجرٍ يوماً فلم أُرح عليهما حتى ناما . فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج . وقال الآخر . اللهم كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس إلى فأردتها) . . الحديث [رواه البخاري ومسلم] .

والبارّ بوالديه مجاهد قال ﷺ لمن جاء يستأذنه في الجهاد أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ قال : نعم قال : فيهما فجاهد . . [رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي] .

والبار بوالديه حاجٌّ ومعتمر . أي له ثواب من حج واعتمر .

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ قال : هَلْ بَقِيَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ . قال : أمِّي قال : فَأَبْلِ اللَّهَ فِي بِرِّهَا فإذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ ومُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ ...

[رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط وإسنادهما جيد] .

الدعوة إلى العمل وترك الكسل

إن العمل في الدنيا أساس عمارتها ، وقوام الحياة فيها . وضمان للشرف وأمانٌ من الذلة والمهانة وسبيل إلى الفلاح وحسن المصير . والفوز بجنات النعيم ، فبالعمل تستخرج كنوز الأرض وخيراتها وينمو حيوانها ونباتها ويتمتع بملذاتها وينال الإنسان حاجته من الطعام والكساء والمسكن وقد قال تعالى :[1] ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُم الأَرضَ ذَلولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وكُلوا مِنْ رِزْقِه وَإليهِ النُّشور ﴾ .

ولقد كان سلفنا الصالح ـ مع اعتمادهم على الله في جميع أمورهم وثقتهم بما عنده تعالى ـ يهتمون بمعاشهم . لم يتركوا طريقاً شريفاً إليه إلا سلكوه ولا باباً مغلقاً إلا عالجوه ففتحوه فقد رعى رسول الله ﷺ الغنم في صغره واتّجر في كبره ، واتَّجر أصحابه رضي الله عنهم ، في البر والبحر وعملوا في نخيلهم ومزارعهم وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن

(١) سورة الملك الآية « ١٥ » .

طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وكان يقول : ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موضع أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري .

وقال أبو سليمان الداراني ليست العبادة عندنا أن تصفَّ قدميك وغيرك يقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد فالسعي في طلب الرزق من أفضل القربات إلى الله وقال بعض السلف أن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة .

فمن أَلِف البَطالة والكسل ، وترك العمل فقد ترك سبيل الرشد والهدى وسقط في هوة الردى ولم يهتد بهدى الإسلام ومن جد وجد واستغنى بكسبه فلم يستخفَّ به أحد وعاش عزيزاً كريماً ونال في أخراه أجراً عظيماً. يا أيها المسلم:

أكسب بالعمل عزك وسعدك وساهم به في رفعة وطنك وأمتك مهتدياً بهدى دينك ، الذي عز به من سبقك،واعلم أن عرقك الذي ينضح وأنت في عملك ماء مبارك يروي بلادك ، وأن تعبك في العمل راحة لك ولمجتمعك . وإن ما عملت قوة وحياة لدولتك ، وفي قوة دولتك وحياتها الخير لك ، ولا تحقر عملاً فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه « مكسبة في دناءة خير من سؤال الناس » .

فالعامل بالاحترام جدير ولا يستغني الناس عنه فلولا الزارع ما وُجد الغذاء ولولا الخياط ما لُبس الكساء ولولا الحداد ما صُنع الفأس ولولا الميكانيكي ما كانت سيارة ولا سارت قاطرة ولا تحركت

باخرة ولا طارت طائرة . وقد قال الرسول ﷺ : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده) وإن نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده في الدروع من الحديد ويبيعه لقومه .

أيها المسلم : إحرص على ما ينفعك فاعمل لخير دنياك وآخرتك واستعن بالله ولا تعجز يزدك قوة ويهب لك ثروة ويحفظك من جنايةِ البطالة والكسل على صحتك وثروتك وخلقك « ونعم أجر العاملين » .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لأن يغدوَ أُحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه) .

وروى الطبراني وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ويكفرها الهمّ في طلب المعيشة) وروى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم) يعني في طلب المعيشة .

فضل العمل المتصل

أساس تربية الفرد في شريعتنا الإسلامية هي دوام العمل واتصاله وإتقانه ، فليس المقصود الأول كثرة العمل فحسب ، بل المقصود اتصال العمل وإتقانه ، لذلك كانت سياسَةُ الإسلام الحكيمة في العبادة هي أن العمل القليل المتصل أحب إلى الله من العمل الكثير المنقطع وأن العمل القليل المتقن أحب إلى الله من العمل الكثير الذي بلا إحكام ولا إتقان .

ولأجل هذا المنهج الإسلامي نوّع الشارع الحكيم مطالبه ووظائفه وقسّمها على الليالي والأيام . ليتقلب العبد بينها ويتنقل من موسم إلى موسم ومن عبادة إلى أخرى .

وفي الحديث المرفوع (أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل) أخرجه الترمذي . . وفُسّر بصاحب القرآن الذي يقرأه من أوله إلى آخره ثم يرجع وهكذا كلما حلّ ارتحل . أي كلما فرغ من قراءته عاد وقد سئل الإمام الشِّبلي : أيّما أفضل رجب أو شعبان ؟ فقال : كن ربّانياً ولا تكن شعبانياً .

كان النبي ﷺ عمله ديمة . أي لا فراغ عنده فعمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله . قال الحسن : إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ثم قرأ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليَقِيْنُ ﴾ .

فهذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير الآجال ومواقيت الأعمال ثم تنقضي سريعاً وتمضي جميعاً والذي أوجدها وابتدعها باق لا يزول ودائم لا يحول هو في جميع الأوقات إله واحد . ولأعمال عباده رقيب شاهد ، فسبحانه قلّب عباده في اختلاف الأوقات بين وظائف الخدم ليسبغ عليهم فواضل النعم ، ويعاملهم بنهاية الجود والكرم ، فما انقضى شهر الصيّام إلاّ ودخلت أشهر الحج لبيت الله الحرام ، فكما أنّ مَنْ صام رمضان وقامه غفر له ما تقدم من ذنبه ، فمن حج البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فما يمضي من عمر المؤمن ساعة من الساعات، إلاّ ولله فيها عليه وظيفة ويتقرب بها إلى مولاه وهو راج خائف .

والمؤمن لا يملّ من التقرب بالنوافل إلى مولاه ولا يأمل إلا قُربه ورضاه ، والمؤمن يعلم أن كل وقت يخليه العبد من طاعة مولاه ، فقد خسره وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه يوم القيامة ندامة ، ويقول حين لا ينفع القول وأسفاه على زمان ضاع في غير الطاعة ، واحسرتاه على قلب بات في غير الخدمة .

قال بعض السلف من عمل طاعةً من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى ، وعلامة ردّها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية ، ولعل مقصودهم بهذا والله أعلم فيمن أعقب الطاعة بمعصية ثم مات عليها . وقال بعض السلف رحمهم الله ما

أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها . وأحسن منها الحسنة بعد الحسنة تتلوها . وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها وما أوحش ذلّ المعصية بعد عزّ الطاعة .وأوحش منه فقر الطمع بعد غنى القناعة.

ولذلك نرى أن الشارع الحكيم في سبيل المحافظة على اتصال العمل ودوامه نهى عن الإفراط في العبادة المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوّع المفضي إلى ترك الأفضل . فقال ﷺ : (إنَّ الدِّيْنَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادّ الدِّيْنَ أَحَدٌ إلاّ غَلَبَهُ فَسَدّدوا . وَقَاربوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَة) رواه البخاري . والمعنى لا يتعمّق أحد في الأعمال الدينيّة ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب قال بعض الحفاظ . وهذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع . وليس المراد منع الطلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النومَ إلى أن غلبه عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة . أو إلى أن خرج الوقت المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة .

وفي قوله ﷺ : (وأبشروا) تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صينعة لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المبشَّرَ به تعظيماً وتفخيماً فكأنه يقول أبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل فالأولى للعامل أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع .

العمل ثمرة الإيمان الكامل

لا بد للإيمان من عمل صالح يقويه ، وخلق طيب كريم يزكيه ، وصفات حميدة تدعمه وتنميه ، ولم يذكر الإيمان في القرآن الكريم إلا وهو مقروناً بالعمل الصالح إرشاداً لنا . وتنبيهاً بأنهما متلازمان لا يفترقان وصنوان لا يبتعدان وأنه جزء من الإيمان قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وجعل العمل والمحافظة على أركانه من صفات المؤمنين . قال الله عز وجل :[1] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِيْنَ هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِيْنَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأولئِكَ هُمُ العَادُونَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أولئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ الَّذِيْنَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْها خَالِدُونَ ﴾ . . ووصفهم الله تعالى بزيادة الإيمان كلما سمعوا الذكر وشدة الخوف منه وعظيم

---

(١) سورة المؤمنون الآية « ١ - ١١ » .

الخشية . ورتب هذه الأوصاف على شدة تمسكهم بالعمل ومحافظتهم عليه . فقال(١) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ ، الَّذِيْنَ يُقِيْمُونَ الصلاَةَ وَمما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أولئِكَ هُم الْمُؤْمِنُونَ حَقاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ ﴾

ثم ذكر الله تعالى من أوصافهم أيضاً الاهتمام بأمر المجتمع الإسلامي كل الاهتمام والشعور بالغيرة على حرمات الله ومحارمه وشعائره وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال(٢) ﴿ وَالمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عِنَ المُنْكَرِ وَيُقِيْمُونَ الصلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ ، وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْمُ ﴾ .

ثم ذكر من أوصافهم أيضاً الاهتمام بأمر الدعوة وذلك بالجهاد والتضحية والقتال في سبيل الله وبذل النفس رخيصة في ذلك فقال(٣) ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيْلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوفَى بَعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُو الفَوْزُ العَظِيمُ ، التَّائِبُونَ العَابِدُونَ

(١) سورة الأنفال الآية « ٢ » .
(٢) سورة التوبة الآية « ٧١ - ٧٢ » .
(٣) سورة التوبة الآية « ١١١ - ١١٢ » .

الحَامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ والنّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِيْنَ ﴾

ونحن إذا رجعنا إلى تعريف الإيمان الذي هو تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان وعلمنا أن العمل من أجزائه وأثر من آثاره ومظهر من مظاهره وثمرة من ثماره ، فالعمل الصالح بمنزلة الغذاء للشجرة والكهرباء للأسلاك . فبدوام الغذاء تبقى للشجرة حياتها ويدوم لها رونقها وجمالها وبوجود الكهرباء تظهر الآثار في الأسلاك حوارياً .

البينة على المدعي : قال سويد الأزدي وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينّا فقال من أنتم ؟ فقلنا مؤمنون فقال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وصدق إيمانكم ؟

فقلنا : خمس عشرة خصلة خمس آمنا بها وخمس عملنا بها في الإسلام وخمس عملنا بها في الجاهلية ونحن الآن عليها فإن كرهتها تركناها فقال عليه الصلاة والسلام : اذكروا ما عندكم فقالوا : أما خمس الإيمان فهي : أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وأما خمس العمل فهي : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن نقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً .

وأما خمس الجاهلية فهي الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء والرضا عن القضاء والصدق والثبات عند الحرب واللقاء وترك

الشماتة بالأعداء ، ومن عظيم سرور رسول الله ﷺ بهم وبإيمانهم النقي وبفطرتهم السليمة قال لهم : أنتم حكماء علماء فقهاء كدتم أن تكونوا أنبياء وأنا أزيدكم خمساً ليتم لكم عشرون إن كنتم كما تقولون : فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون وارغبوا فيما عليه تقدحون وفيه تخلدون، فانصرفوا وقد حفظوا وصيته وعملوا بها رضي الله عنهم أجمعين .

وروي أن رسول الله ﷺ أتاه حارثة رضي الله عنه فقال له رسول الله ﷺ : كيف أصبحت يا حارثة ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال رسول الله ﷺ : أنظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني بأهل الجنة في الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعاوون فقال رسول الله ﷺ : عرفت فالزم . وانطلق حارثة في ميادين الشرف والنضال يعلي كلمة الله ويذود عن رسول الله ﷺ فَخَرّ صريعاً في ساحات الجهاد والتضحية والفداء . فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ تسأله عن حارثة وعن مصيره فقالت : يا رسول الله أخبرني عن حارثة فإن كان في النار بكيت وإن كان في الجنة صبرت . فقال عليه الصلاة والسلام : يا أم حارثة إنها ليست جنة وإنما هي جنات وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى . فقالت : بخٍ بخٍ يا حارثة .

فهذه أمثلة عن حقيقة الإيمان الكامل الذي تجسد بصورة بشرية فكان المؤمنون الصادقون الصالحون . وهذه هي حقائق

الإيمان الحي المشرق فما هي حقائق إيماننا نحن يا ترى ؟ المؤمن الكامل يكون بِشْره في وجهه وحُزنه في قلبه . واسع الصدر زاجراً عن كل شر آمراً بكل خير لا حقود ولا حسود ولا مرتاب ولا سبّاب ولا عيّاب يكره الرفعة ويبغض السمعة طويل الهم كثير الغم حليف الصمت عزيز الوقت لا متفاخر ولا متهتك ضحكه تبسم واستفهامه تعلم ومراجعته تفهم لا يبخل ولا يعجل ولا يضجر ، قليل المنازعة جميل المراجعة عدل إن غضب رفيق إن طلب مخلص في الود وثيق العهد وفيّ الوعد شفوقٌ وصولٌ حليم ، يتحمل الأذى قليلُ الفُضول راض عن مولاه مخالف لهواه لا يغلظ على من يؤذيه ولا يخوض فيما لا يعنيه لا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة دقيق النظر عظيم الحذر مقبلاً على ربه خائفاً من مولاه مترقباً للموت مستعداً للآخرة فهذا هو المؤمن حقاً .

العمل هو أكبر شهادة

لا يقاس الرجال بشهاداتهم وليست قيمة الرجال الحقيقية بهذه الورقة التي يحملها والتي تسمى بالشهادة والتي لا تصلح أن تكون ميزاناً صحيحاً لاعتباره وإنما شهادة الإنسان عمله مع علمه وسيرته وخلقه وإنسانيته ومروءته ومعاملته مع الناس ومعرفته لحقوقهم وإعطاء كل ذي حق منهم حقه . وكم من أناس في هذا العصر الذي تسابق الناس فيه إلى بنوك الشهادات وتهافتوا على مصارفها . فوصلوا إلى درجة معينة من الدرجات العلمية وأخذوا سنداً على ذلك فظنوا أنهم قد أدركوا ما لم يدركه غيرهم ووصلوا إلى ما انقطع عنه سواهم وأنهم قد أمسَكوا بالثريا التي غابت في السماء فلا تظهر لأحد بعدهم ملأ الغرور نفوسهم وسيطر العجب عليهم فكأن الأرض تحتهم ليست بالأرض والسماء ليست بالسماء والناس ليسوا بالناس نسوا الأهل والإخوان وتجاهلوا الأحباب والخلان وعقّوا الآباء والأمهات لا يعجبهم وطن ولا يرضيهم سكن ، ويا ليتهم مع غرورهم وعجبهم هذا لهم في ميدان العلم رصيد جدير بالاحترام أو قدم راسخة أو

حجة ثابتة أو نظر ثاقب أو عبقرية فذة أو تقدم مشهود مع أن زيادة العلم وسعة الاطلاع وطول الباع لا تجتمع مع الغرور والعجب في نفس واحدة بل إن الإنسان كلما ازداد علماً صحيحاً ومعرفة صادقة ، ازداد تواضعاً واحتقاراً لنفسه ونسياناً لذاته وأيقن أنه لم يصل إلى ما ينبغي أن يصل إليه أهل الكمال وأدرك أنه لم يدرك شيئاً وعلم أنه لم يزل يتعلم وأن بينه وبين الحقائق طرائق وأي طرائق .

وهذا واقع جرّبه كثير من أهل الفضل وشهدوه وأخبروا به وهو أن طالب العلم في أول أمره إذا بدأ يقرأ الكتب الصغيرة ومبادىء العلوم ظن أنه عالم فاهم من أجلة العلماء ، فإذا ما تقدم في هذا الميدان وازداد معرفة وعلماً وفهما علم أن هناك من سبقه بمراحل وتقدم عنه بمراتب وأنه أعلى منه وأجلّ . فإذا وصل إلى آخر درجة في مراتب التحصيل العلمي وزاد علمه وفهمه ومعرفته استحيا من نفسه التي كان يتصورها من قبل على الوصف السابق وعلم أنه في بحر عميق قاعه ، بعيد ساحله وأنه مهما أبحر فيه فإنه يبتعد عنه الساحل ويزداد العمق وقد لا يسلم من العقبات والصعاب والأمواج الثائرة التي قد يموت وتنتهي حياته وهو لم يخلص منها .

العلم للرحمن جلّ جلالـه وسواه في جهلاتـه يتقمقم
مـا للتـراب وللعلوم وإنمـا يسعى ليعلم أنـه لا يعلم

عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بئس

العبد عبد سهاولها ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وطغى ونسي المبتدا والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين ، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد طمعٌ يقوده ، بئس العبد عبد هوىً يُضله ، بئس العبد عبد رُعب وحرص وشَره يُذله ﴾ . [رواه الترمذي] .

فمن تواضع لله رفعه الله فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير ، ومن تكبر قصمه الله وأهانه وأذله وكسره فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير .

يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم . وكم من رجل ليس من أرباب الشهادات ولكنه بعمله وفضله وخلقه وسيرته حاز أعظم الشهادة آثاره واضحة ونتائجه ناجحة وجهوده نافعة وخيراته واسعة .

أولئك الرجال الذين بفقدهم تضيع على الأمة أعز ثروة وأثمن كنز[1] ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرْ وَما بدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾

---

(١) سورة الأحزاب الآية « ٢٣ » .

علو الهمة

يبذل المجدون في سبيل بلوغ الأماني العالية والمطالب السامية كل غال ورخيص ونفس ونفيس ويتحملون في طريقهم لذلك المشاق والمصاعب ويعبرون على ما يقابلهم من عقبات ومتاعب ، فيستعذبون العذاب ويتلمسون الأسباب ويطرقون الأبواب . ويستسهلون الصعاب ولسان حالهم يقول :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى　　فما انقادت الآمال إلا لصابر

وبقدر عظمة النفس وقوة الهمة تكون شدة الشوق ، وإلحاح الرغبة وسخاء البذل من النفس والمال .

وإذا كانت النفوس كباراً　　تعبت في مرادها الأجسام

وقد ضرب لنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى في ذلك الميدان وربّى أصحابه على هذه المعاني الجليلة وصقل نفوسهم ووجّه مقاصدهم وهذّب عقولهم .

قصفت قلوبهم وعلت مقاصدهم وسمت همتهم وحسنت

نيتهم وصلحت مسيرتهم وطهرت سريرتهم . وقد وجه ﷺ الهمم إلى حبّ العوالي واكتساب المعالي .

فقال : (إن الله تعالى يحب معالي الأمور واسرافها ويكره سفسافها) وفي رواية : (إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها) .

وجاء في حديث نبوي : (إن الله رضي لكم مكارم الأخلاق وكره لكم سفسافها) رواه الطبراني والحاكم والبيهقي .

والسفساف : هوالأمر الحقير الرديء من كل شيء وهو ضد المعالي والمكارم .

وفي هذا توجيه سديد من النبي الكريم الحكيم لكل مسلم أن يحرص على العمل العظيم والتصرف الحميد والسعي المشكور وأن لا يرضى بالأعتاب من الأبواب ولا بذيول المواكب ، وأن لا يقنع بالحقير التافه المرذول يناله أو يفعله .

بل يتطلع إلى القمة السامية ويسعى نحوها جاهداً مجاهداً ليكون من أهل المكارم والمحامد ، ويقف موقف العزّ والكمال والبهجة والجلال حتى لا تكون فيه ذرة ولا دقيقة إلا وقد غشيها من عزّ الله ما يمنعها من الذل لغيره أو الخضوع لسواه .

وإن هذه الحياة لزاخرة بالأموات الذين يمشون على وجه الأرض بين الناس .

وذو الجهل ميت وهو حي لجهله　　يُعدّ من الأحياء وهو عديم

أولئك ليس لهم ميزان أو اعتبار ولا يعرف لهم في ساحة المفاخر نصيب أو مقدار .

وليس أدق أو أحفظ من التاريخ الصحيح المنصف وهو يسجل للأجيال والأمم أخبار النابغين البارزين في موكب الحياة الذين لا يصبرون على الحياة الراكدة الخامدة ولا يرضون بالمنزل الدّون ، يستعذبون المشقات ويرحبون بالشدائد والمصاعب يثابرون ويصبرون ويحاولون ويبذلون من جهودهم ما يبذلون لكي يرتقوا قمة المجد وهامة الشرف مع صيانتهم لدينهم وأخلاقهم ومبادئهم النبيلة بل هم في سبيل هذا الدين وتلك الأخلاق يجاهدون ويكافحون فكأنهم المستجيبون لقوله تعالى[1] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ .

وفي ذلك يقول عمر الفاروق : لا تصغرن هممكم فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم ويرحم الله الشاعر الطّغرائي إذ يقول : .

حب السلامة يثني عزم صاحبه	عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا	في الأرض أو سلماً في الجو فاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على	ركوبها واقتنع منهن بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنة	والعز عند رسيم الأينق الذلل

إن المسلم في الحياة عزيز الجانب ، رافع الرأس عالي الهمة لا يستشرف إلا إلى معالي الأمور ولا يتعلق إلا بأسباب الكمال لا

(١) سورة آل عمران الآية « ٢٠٠ » .

يقنع من الشرف مما انبسط له أملاً فيما هو أسنى درجة وأرفع منزلة لا يعرف العجز ولا الكسل ، ويحقر في سبيل المطلوب كل ما بذل

من نفسه شريفة أبيه يربأ عن أموره الدّنية
ولم يزل يجنح للمعالي يسهر في طلابها الليالي

نظام المال في الإسلام

(١)

تكفلت الشريعة الإسلامية بتنظيم حياة الفرد والجماعة في كل أوجها وأحوالها وعلى مختلف أنواعها ولما كان المال هو عصب الحياة وقوامها المتين فإن الإسلام أولاه عناية تامة كاملة شاملة جعلته في إطار قواعد كلية منظمة مرتبة دقيقة .

ومن صور تلك العناية الترغيب في تحصبل المال الحلال الطيب قال الله تعالى : [١]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقال تعالى : [٢]﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً﴾ وقال ﷺ : (طلب الحلال واجب على كل مسلم) . رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن . وفي رواية للطبراني والبيهقي : طلب الحلال فريضة بعد فريضة .

---

(١) سورة البقرة الآية «١٧٢».
(٢) سورة البقرة الآية « ١٦٨ » .

وقد بينت الشريعة الإسلامية الطرق المحمودة في تحصيل الحلال وحثت على الأخذ بها والسعي في التحصيل بالتزامها وعدم الخروج عنها إلى غيرها مما ينافيها .

وأشرف الأبواب المشروعة إلى ذلك هو العمل والتجارة . فقد ثبت في الحديث . عن رفاعة بن رافع أن النبي ﷺ سئل : أي الكسب أطيب ؟ قال:

عمـــل الرجل بيده وكل بيع مبرور . رواه البزار وصححه الحاكم .

فهذا الحديث جمع أصول طرق الكسب المشروعة وهي عمل اليد والتجارة وكل ذلك طيب ومبارك وحلال مطلوب . وفي الحديث : ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده . (بخاري).

فالسعي لطلب المال عن طريق عمل اليد أو التجارة شرف والإسلام لما حث على العمل وأمر به إنما مقصودة العمل بنوعيه « التجارة والعمل باليد » .

والقرآن الكريم أشار إلى ذلك مبيناً أن ساحة العمل واسعة بقوله : (١)﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُور] .

ومناكب الأرض طرائقها وسبلها وهي أعم من أن تكون حسية يدب فيها الناس بأقدامهم بل تشمل كل طاقة يمكن أن تستغل في زيادة الانتاج والحصول على الرزق .

(١) سورة الملك الآية « ١٥ » .

فالعامل المسلم حر طليق يرتاد ميادين العمل جميعها غير مقيد بزمان أو مكان ما دام رائده النفع العام . والعمل في الإسلام قرين الصلاة والجهاد والحج ، يقول الله سبحانه وتعالى : [1]﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الْصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيْراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ .

وفي هذه الآية إرشاد واضح للناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم بعد انقضاء الصلاة في فجاج الأرض الواسعة ، فالإسلام دنيا ودين صلاة وسعي عبادة وتجارة مسجد ومعمل .

ويكفي العمل شرفاً أن أشرف الخلق سيدنا محمداً ﷺ قد رعى الغنم وهو صغير وأعلن ذلك في فخر واعتزاز فقال : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط . رواه البخاري .

وشارك في التجارة عاملاً أميناً وقصته في ذلك مع السيدة خديجة قبل زواجه بها أشهر من أن تذكر . وأوصى بإتقان العمل وإحكامه وعدم الإخلال به وإعطائه حقه الذي ينبغي أن يعطي فقال : إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه . (بيهقي) .

وأوصى العاملين بالجد والاجتهاد والنشاط وافتتاح اليوم بعد الصلاة بالعمل والمواظبة على ذلك حتى يألفه ويتعود على الاستمرار والدوام والتنظيم فقال : باكروا الغدو في طلب الرزق فإن الغدوة بركة ونجاح . (طبراني) .

---

(١) سورة الجمعة الآية « ١٠ » .

وبين ﷺ عملياً لأحد أصحابه شرف العمل وفضله كما جاء عن أنس أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله ـ أي طلب منه مالاً ـ فقال له ﷺ : أما في بيتك شيء ؟ قال الرجل : بلى ، حلس نلبَس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء . والحلس : كساء يستخدم للفرش ، والغطاء . والقعب : إناء من فخار وهو القدح الضخم الغليظ فقال له ﷺ ائتني بهما فأتاه فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا أخذهما بدرهم ، قال رسول الله ﷺ : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاماً واذهب به إلى أهلك واشتر بالآخر ـ قدوماً ـ وهو الآلة التي ينحت بها وتستخدم في قطع الأشجار وغيرها . فذهب الرجل وفعل كل ذلك وجاء بالقدوم فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع . ولا أرينك خمسة عشر يوماً ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال له ﷺ : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة أي نقطة ظاهرة يراها الناس . رواه أبو داود والنسائي والترمذي .

نظام المال في الإسلام

(٢)

اعتنت الشريعة الإسلامية بالنظام المالي اكتساباً وإنفاقاً ومقصداً فأمرت بطلب الحلال وحذرت عن تحصيل المال بوجه لم يبحه الشرع وأمرت بالإبتعاد عن مواطن التهم والشبه والحرمات قال الله تعالى :[١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيْماً * وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيْهِ نَاراً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْراً ﴾ وفي هذه الآية نهي صريح عن اكتساب الأموال وأخذها بالباطل الذي لا يحل تعاطيه في الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وغير ذلك .

ومن هذا القبيل من يتزيا بزي الصالحين أو العلماء ليعطى ، وهو في الباطن ليس كذلك .

والآية تشمل أكل الإنسان مال نفسه بالباطل بأن ينفقه في محرم مثلاً ، بل إن النبي ﷺ أخبرنا أن الاكتساب من الطرق المحرمة يرد العمل ويبعد العبد عن رضاء الله وحبه لما ثبت في الحديث : أن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك .

---

(١) سورة النساء الآية « ٢٩ - ٣٠ » .

ولهذا قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما تليت هذه الآية :[1] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ وقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعاء ، قال له ﷺ : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . رواه الطبراني في الصغير عن ابن عباس .

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - : من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله عزّ وجلّ له صلاة ما دام عليه ، ثم أدخل أصبعيه في أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقوله [رواه أحمد] .

أما في يوم القيامة فإن الذي يأكل الحرام لا يجد جواباً حين لا يصرف عن الموقف حتى يسئل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه . [رواه البيهقي والترمذي وصححه] .

ولا مكان له إلّا دار الهوان أي العذاب الهون المؤلم لما ثبت في الحديث ومن اكتسب مالاً من غير حله وأنفقه في غير حقه أحله الله دار الهوان ، ورب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة، يقول الله تعالى[2] : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيْراً ﴾[البيهقي] .

(١) سورة البقرة الآية « ١٦٨ » .
(٢) سورة الإسراء الآية « ٩٧ » .

ولا يدخل الجنة لحم ودم نبت على سحت بل النار أولى به ، كما جاء في الحديث : لأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء لا يسكنها إلا الطيب .

إن الحياة مزارع فازرع بها ما شئت تحصد
والناس لا تبقى سوى آثارهم والعين تفقد
والمال إن أصلحته يصلح وأن أفسدت يفسد

وإنّ من محاسن هذه الشريعة الغراء أنها ما حرمت علينا شيئاً إلا وعوضتنا خيراً منه مما يسد مسده ويغني عنه ، فحرّمت علينا الربا وعوضتنا عنه التجارة الرابحة ، وحرّمت القمار وعوضتنا المسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام .

وأفراد هذه المسائل كثيرة في البيوع وغيرها كل هذا ليبتعد الناس عن الحرام ويكتفوا بغيره في رضا تام واطمئنان كامل وأحاط الإسلام الحرام وطرقه وسبله وما حوله بسياج كامل من النهي والتحذير والتنفير بل جعل ما أدى إلى الحرام حراماً وشواهد هذه القاعدة الفقهية المعتبرة كثيرة جداً وجعل التحايل على الحرام حراماً فقال ﷺ : (لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) .

قال ابن القيم : سنده جيد . (الحلال والحرام ٣٢) .

ومن الحيل الآثمة تسمية الشيء الحرام بغير اسمه وتغيير صورته مع بقاء حقيقته فقد جاء في الأثر : أنه يأتي على الناس زمان يستحلون الخمر يسمونها بغير اسمها ويستحلون الربا باسم البيع .

قال بعض العلماء : ومن غرائب عصرنا الحاضر أن يسمى الرقص الخليع فنا والخمور مشروبات روحية والربا فائدة .

ومن اعتناء الإسلام بتربية الناس على كراهية الحرام والابتعاد عنه أن أمر باتقاء الشبهات خشية الوقوع في الحرام ، وأنه لم يجعل أي اعتبار أو أثر للنية الحسنة في تبرير ارتكاب الحرام ، فالحرام حرام مهما حسنت نية فاعله وشرف قصده ومهما كان هدفه نبيلاً ولا يرضى الإسلام أبداً أن يتخذ الحرام وسيلة إلى غاية محمودة لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطهر الوسيلة معاً ، ولا يقرر الإسلام أبداً مبدأ الغاية تبرر الوسيلة .

شؤم الاحتكار

الاحتكار إدخار الطعام لانتظار غلاء الأسعار أو العمل على شراء ما في الأسواق مما يحتاج إليه الناس من الطعام ليحبسه عنهم ويجمعهم ويخزنه حتى تقل من الأسواق وتكثر حاجة الناس إليها ، فيرتفع سعرها ويكون هو السبب في ذلك وهو جريمة اجتماعية مذمومة وظلم يتعرض به صاحبه لسخط الله ولعنته وكراهية الناس وبغضهم ، ويكفي صاحبه ذماً أن عمله الصالح مردود ما دام هو متلبِّساً بهذه الجريمة الشنيعة فلا يقبل له عمل كما قال ﷺ : (من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره) . رواه الديلمي في مسند الفردوس وغيره .

وإن الله بريء منه لا يحبه ولا يتولاه ولا يؤيده ولا يسدده فهو مخذول شقي ليس بموفق ، فقد روى ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال ﷺ : ﴿ من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد بريء من الله وبريء الله منه). [رواه أحمد والحاكم] وقيل : كأنما قتل الناس جميعاً .

والمحتكر قاسي القلب بليد الحس خبيث النفس عديم الذوق .

فعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال : (من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه) .

وعنه أيضاً : أنه أحرق طعام محتكر بالنار . وفي الصحيح : لا يحتكر إلا خاطىء ، والمحتكر يستحق أن يبتلى بالجذام والإفلاس كما قال ﷺ : (من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس) . [رواه ابن ماجه] .

والمحتكر يستحق اللعن والطرد عن رحمة الله لأنه خالي القلب عن الرحمة قال ﷺ : (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) .

وقد يكون التاجر هو السبب في غلاء السعر بأن يشتري ما في الأسواق مما يحتاجه الناس ويجمعه عنده ويحبسه حتى تقل في الأسواق أو تعدم بالكلية ، وكثر طلب الناس لها فيزيد سعرها ويرتفع كثيراً . فإذا كان التاجر هو السبب في هذه العملية فقد ركب مركباً خطراً ، إذ حدثنا رسول الله ﷺ عن مكانه وموقفه يوم القيامة ، قال ﷺ : (من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة) . رواه أحمد ـ أي بمكان عظيم ـ

وجاء في فضل ترك الاحتكار عنه ﷺ : (من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به وفى لفظ آخر : (فكأنما أعتق

رقبة) . رواه ابن مردويه بسند ضعيف .

وأما الاحتكار بمكة فأقبح وأفظع لحرمة المكان وقدسيته وشرفه وفضله وعظمته قال الله تعالى :[1] ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيْهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ ﴾ .

فقد قال بعض العلماء : إن الاحتكار من الظلم وداخل تحته في الوعيد .

ولذلك كان لولي الأمر أن يكره المحتكرين من التجار على البيع جبراً بغير اختيارهم ، يكرههم على البيع بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه ، ولو امتنع أحد منهم عن بيعه إلا بأكثر من سعره فرضي المشتري ووافق في أول الأمر وأخذ السلعة ، لم يجب عليه إلا قيمة مثله فقط . إذا رفع أمره إلى من يتولى مراقبة الأسواق نائباً عن وليّ الأمر كما هو مقرر في كتب الفقه .

ومن خالف من التجار ولم يتقيد بذلك وظهر أمره وجب نصحه وزجره فإن لم ينته ولم ينزجر وجب تعزيره وتأديبه بما يراه ولي الأمر ، كافياً في ردعه ومناسباً لشخصه .

وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ، فلما وصل الطعام إلى البصرة صادف أن سعر الحنطة رخيص في ذلك الوقت فقال التجار للوكيل : الأحسن لك أن تؤخر بيع الحنطة إلى أسبوع أو أسبوعين فإنه يغلو السعر ، فإذا

(١) سورة الحج الآية « ٢٥ » .

بعته حينئذ تربح فيه أضعافاً مضاعفة فرضي الوكيل وأخره أسبوعاً ثم باعه فربح فيه أمثاله وكتب إلى صاحبه ـ صاحب المال ـ بذلك وظن أن ذلك يسره فأجابه صاحب المال : يا هذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا عليّ ولا لي .

أثر الرذائل في هدم المجتمع

لا شك أن لسوء الخلق الأثر الكبير في إضعاف الأمة وزعزعة كيانها وهدم شخصيتها وفشو الجرائم والمصائب والفتن بين أفرادها .

وسوء الخلق : كل وصف ذميم تكرهه النفس .

قال الجارود : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ، والأخلاق السيئة كثيرة وهي من أعظم أمراضنا الاجتماعية فمن الواجب أن نبذل جميع ما في وسعنا لمكافحتها والقضاء عليها منها :

الكذب : الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه فمن أدخل في حديثه الكذب فقد عرضه للإعراض عنه وعطل النفع به ولا ينبغي للمؤمن أن يشوه جمال إيمانه بالكذب وعندما نسب الكفار إلى النبي ﷺ الافتراء والكذب وإنما يقوله إنما هو من عند نفسه قال الله تعالى :[1] ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الّذِيْنَ لاَ يُؤْمِنُونَ بآياتِ اللَّهِ ﴾

(١) سورة النحل الآية « ١٠٥ » .

يعني إنما يكون افتراء الكذب ممن لا يؤمن لأنه لا يخاف عقاباً يردعه عنه ﴿ وَأُولئِكَ هُمُ الكاذِبُونَ ﴾ وهذه الآية دليل قوي على أن الكذب كبيرة من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش والكذب علامة من علامات النفاق . روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (آية المنافق ثلاث إذا حدث) بشيء (كذب) أي أخبر عنه بخلاف ما هو به قاصدا للكذب (وإذا وعد) بالخير في المستقبل (أخلف) فلم يف . وخلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد أما لو كان عازماً على الإيفاء ثم عرض له مانع أو بدالة رأي فهذا لم يوجد منه صورة النفاق (وإذا ائتمن) أمانة (خان) بأن تصرف فيها على خلاف الشرع . فالكذب حرام ولكنه يجوز للإصلاح بين الناس روى البخاري عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :(ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي (يبلغ) خيراً أو يقول خيراً) . وليس المراد نفي الكذب بل نفي إثمه فالكذب كذب سواء كان للإصلاح أو لغيره .

الكبر : الكبر والتكبر والتعالي على الناس أن يرى المرء نفسه خيراً من غيره لفضيلة يراها في نفسه كعلم وجاه ومال والكبر ثمرة العجب وقد هلك بها كثير من الناس ويكفي المتكبر إثماً عدم محبة الله تعالى له قال تعالى :[1] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً ﴾ متكبراً أي معجباً بنفسه مستحقراً لغيره ﴿ فَخُوراً ﴾ على الناس بما أوتي . وعندما ذكر الله تعالى صفات المؤمنين الصالحين في

(١) سورة النساء « ٣٦ » .

آية :[1] ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِيْنَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوناً ﴾ أي يمشون على الأرض بسكينة وتواضع لا يمرحون في مشيهم ولا يختالون في سيرهم) .

وروى البخاري في صحيحه عن حارثة بن وهب الخزامي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ألا أخبركم بـ) أغلب (أهل الجنة) هم (كل ضعيف) أي ضعيف الحال لا ضعيف البدن (متضاعف) أي متواضع (لو أقسم على الله) يميناً طمعاً في كرم الله بإبراره . (لأبره ، ألا أخبركم بـ) أغلب (أهل النار) هم (كل عتل) غليظ جاف (جواظ) مختال في مشيه (متكبر) ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

الحسد : الحسد تمني زوال نعمة المحسود عنه وإن لم يصر للحاسد مثلها . والغبطة : تمني مثلها فالحسد مذموم دون الغبطة قال الرازي : إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة فكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم قال بعضهم :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم غيري من الناس أهل الفضل قد
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

(١) سورة الفرقان الآية « ٦٣ » .

وقد أمرنا بالاستعاذة بالله من شرور الحاسد قال تعالى[1] : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي أظهر حسده وعمل بمقتضاه أي حمله الحسد على إظهاره لأنه إذا لم يظهر الحسد وحده لاغتمام بنعمة غيره ، وأقوى أسباب الحسد العداوة وحب الرئاسة فما على المحسود إلا أن يصبر على حسد الحسود .

إصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

الهجرة : مفارقة المرء كلام أخيه المؤمن مع تلافيهما وإعراض كل واحد منهما عن الآخر وهو أمر غير جائز . روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تباغضوا) بأن تتعاطوا أسباب التباغض (ولا تحاسدوا) بأن يتمنى أحدكم زوال النعمة عن أخيه (ولا تدابروا) التدابر التهاجر (وكونوا عباد الله إخوانا) باكتساب ما تصيرون به إخوانا . وروى البخاري في صحيحه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا يحل لرجل أن يَهجر أخاه فوق ثلاث ليال) بأيامها وظاهر الحديث إباحة ذلك في الثلاث لأن الغالب أن ما جبل عليه من الإنسان من الغضب وسوء الخلق يزول من المؤمن أو يقل بعد الثلاث (يلتقيان فيعرض هذا) عن أخيه المسلم (ويعرض هذا) الآخر كذلك (وخيرهما الذي يبدأ أخاه بالسلام) . . وقال الأكثرون : تزول الهجرة بمجرد السلام ورده .

---

(١) سورة الفلق الآية « ٥ » .

من مكارم الأخلاق

[(1)]﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُر بالعُرْفِ وأعْرِض عَن الجَاهِلِيْنَ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق بأن يأخذ الناس بالعفو مكان الغضب وأن يأمرهم بالعرف وهو الجميل المستحسن من الأفعال وأن يعرض عن الجاهلين المصرّين على جهلهم بأن لا يكافئهم بمثل سفههم قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

عناية الإسلام بالأخلاق :

وجّه الإسلام جانباً كبيراً من عنايته بالأخلاق ، فحث على الصبرِ والأمانةِ والصدقِ والحياءِ وغيرها من الأخلاق الكريمة ، فمن الأخلاق الفاضلة التي جاء بها القرآن في هذا الدين الإسلامي :

الصَّبرُ : والصّبر حبس النفس على المكروه وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج ، جاء القرآن الكريم

(1) سورة الأعراف الآية « 198 » .

حاثاً عليه وحاضاً على التخلق به فيما يزيد على سبعين آية : قال تعالى :[1] ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ أي على الطاعة وعن المعاصي ومن يبتلون به وعن فضول الدنيا ﴿ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي إنما يعطي الله أهل الصبر على ما لقوا فيه في الدنيا أجرهم يوم القيامة بغير حساب .

ولما كان الإنسان في هٰذه الحياة يريد أن تسير الأمور على ما يريد [illegible] ولكن الله يفعل في عباده ما يريده وهو الخبير بأحوالهم [illegible] بما [illegible] ، فالمؤمن الكامل يواجه الأحداث بصبرٍ ورضا [illegible] الله تعالى للصابرين من الثواب العظيم والأجر الكبير : قال تعالى :[2] ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ الَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ ﴾ أي مكروه ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ خلقاً وملكاً يفعل بنا ما يشاء ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إنا إليه بعد مماتنا صائرون ﴿ أُولٰئِكَ ﴾ هؤلاء الصابرون ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ ﴾ ومغفرة ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ الكاملون في الهدى . فإن الرضا عن الله في كل حالٍ من علامات الهدى الكامل .

روى الإمام أحمد في مسنده عن الحسين بن علي عليهما السلام عن النبي ﷺ قال : (ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدّد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها) .

---

(١) سورة الزمر الآية « ١٠ » .

(٢) سورة البقرة الآية « ١٥٥ - ١٥٦ » .

ومن الأخلاق التي جاء بها القرآن : الحلم والحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب وعدم إظهاره . قال تعالى في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام :[1] ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لأوَّاهٌ حَلِيْمٌ ﴾ أي إن إبراهيم لعظيم الخشية من الله صَبورٌ على الأذى والصفح عن زلّات غيره عليه . وفي آية ثانية قال تعالى :[2] ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لَحَلِيْمٌ أَوّاهٌ مُنِيْبٌ ﴾ أي إن إبراهيم لبطيء الغضب متذلل لربه خاشع له منقاد لأمره رجاع لطاعته ، ومما علمه الله تعالى به نبيه قوله تعالى :[3] ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ﴾ فالحسنة خير والسيئة شر ﴿ إِدْفَعْ بالّتي هي أَحْسَنُ فَإذا الّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وليٌّ حَمِيْمٌ ﴾ إرفع بحلمك يا رسول الله جهْلَ من جهل عليك وبعفوك إساءة من أساء إليك وبصبرك مكروه ما تجد منهم فإذا فعلت ذلك صار المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي لك من بني عمك قريب النسب لك ، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى يحب هذا الخلقُ الكريم ، روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ للأشج « المنذر بن عائذ » : (إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة ولا يسود المرء بين قومه إلا بالحلم فلا سيادة لمن لا حلم له) . وقال معاوية لعرابة : بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في قضاء حوائجهم فمن فعل فِعلي فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه .

---

(١) سورة التوبة الآية « ١١٥ » .
(٢) سورة هود الآية « ٧٥ » .
(٣) سورة فصلت الآية « ٣٤ » .

ومن الأخلاق التي جاء بها القرآن :

العفو : ينشأ عن الحلم وهو عدم المؤاخذة بالذنب . قال تعالى :[1] ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ أي وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها ، ثم بيّن تعالى بأن العفو أولى فقال : ﴿ فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ ﴾ أي بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ثوابه عليه ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظالِمِيْنَ ﴾ وروى مسلم والترمذي ومالك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعة الله) .

ومن الأخلاق القرآنية :

الصدق : والصدق إلقاء الكلام على وجه يطابق الواقع والاعتقاد فالصدق أحسن الفضائل وأصل كل حسنة ومادة كل خصلة محمودة . قال تعالى :[2] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع المنهيات بالاجتناب لها ، خاصة رذيلة الكـذب ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِيْنَ ﴾ وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الصدق يهدي إلى البر- أي يوصل إلى الخيرات كلها - وإن البر يهدي - يوصل - إلى الجنة وإن الرجل ليصدق - في السر والعلانية ويتكرر منه ذلك - حتى يكون صدِّيقاً وإن الكذب يهدي - يوصل - إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً) .

---

(١) سورة الشورىٰ الآية « ٤٠ » .
(٢) سورة التوبة الآية « ١٢٠ » .

لا ضرر ولا ضرار

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا ضرر ولا ضرار) رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما ورواه مالك في الموَطأ مرسلاً .

الإسلام يحرم على المؤمن أن يكون مصدر شر لعباد الله ، ويفرض عليه أن يكون من مفاتيح الخير ، وأن يعيش بين الناس نظيف الضمير نظيف اليد واللسان ، يقول ﷺ : (إن هذا الخير خزائن ولتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير) رواه ابن ماجه .

والذي يضر غيره يخرجه الإسلام من صفوف المسلمين ، ويحيا حياة مليئة بالمشاق والصعاب ، يقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : (من ضار مسلماً ضاره الله ومن شاق مسلماً شق الله عليه) رواه أبو داود والترمذي وحسنه . ومعنى الحديث أن من أدخل على مسلم مضرة في ماله أو نفسه أو عرضه بغير حق ضارّه

الله ، أي جازاه الله من جنس عمله وأدخل عليه المضرة في حياته ، والمشاقة أي المنازعة . أي من نازع مسلماً ظلماً وتعدياً أنزل الله عليه المشقة فيجعل الله له معيشة ضنكا ، والحديث تحذير شديد عن إيذاء المسلم بأي نوع من أنواع الإيذاء ، ولقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك في قوله : (لا ضرر ولا ضرار) وقد اختلف الباحثون في هذا الحديث هل بين اللفظين أعني الضرر والضرار فرق أم لا ؟ فمنهم من قال هما بمعنى واحد على وجه التأكيد . والمشهور أن بينهما فرقاً وأصح ما قيل في الفرق بينهما أن الضرر أن تضر إنساناً لم يضرك ولم يصل إليك عن طريقه أذى ، والاضرار أن تقابل الضرر بالضرر فتضر من أضر بك على وجه غير جائز (لا ضرر ولا ضرار) هكذا في عموم شامل يطارد الشر في جميع صوره ودرجاته ويتعقبه في كافة مساربه ومداخله حتى يطهر الأرض من أوزاره .

وللضرر صور كثيرة مفزعة ! فالمغتاب والنمّام والهمّاز واللمّاز والكذاب والغشاش كل هؤلاء يلحقون بالناس ضرراً بليغاً حين يتعاملون معهم بهذه الأخلاق الرديئة .

والحسد الذي يسعى به الحاسد في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل ، ظلم يمحق الحسنات يقول ﷺ : (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب) . رواه أبو داود واحتكار المواد الضرورية لتشتد حاجة الناس إليها فيبيعها لهم بثمن مرتفع جشع يورد صاحبة النار . يقول ﷺ : (من احتكر طعاماً فهو خاطىء) رواه مسلم . ويقول ﷺ : (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) رواه ابن ماجه

والحاكم . وعن معاذ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح) رواه في الترغيب عن رزين،والنجش في البيع وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها إما لنفع البائع لزيادة الثمن له . وإما بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه فهذا حرام يجلب غضب الله ومقته ففي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ : (أنه نهى عن النجش) وفي رواية مسلم : (لا تحاسدوا ولا تناجشوا) وبيع الرجل على بيع أخيه وخطبته على خطبته عدوان أثيم ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه) وفي رواية: (إلا أن يأذن له) وغبن المسترسل وهو الذي لا يعرف المماكسة حرام ومعناه أن يستغل جهل المشتري بقيمة السلعة ونوعها فيمكر به ويخدعه ليبيعه الشيء أغلى من ثمنه أو أدنى من رتبته وفي ذلك يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : (ملعون من ضار مسلماً أو مكر به) الترمذي .

والرجل في بيته يسيء معاملة زوجته ويجحف بحقوقها ولا يسوي بين أولاده في رعايته وعطاياه يوقع بأسرته أبلغ الضرر . يقول ﷺ : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم) رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

ويقول ﷺ : (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت) . رواه أبو داود والنسائي . وعن الحسن رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الله سأل كل راع عما استرعاه حفظ أو ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته) رواه ابن ماجه .

والمرأة تهمل حقوق زوجها ولا تحفظ أمانته إذا غاب عنها تكون مصدر ضرر لزوجها ولمجتمعها . ففي الحديث الشريف (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه) رواه البخاري . وفي حديث رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت) . وقد ورد في القرآن الكريم النهي عن المضارة في مواضع كثيرة منها : الإضرار في الوصية بأن يخص بعض الورثة بزيادة على فرضه الذي فرضه الله له فيتضرر بقية الورثة بتخصيصه أو يوصي لأجنبي بزيادة على الثلث فينقص حقوق الورثة . يقول الله تعالى :(١) ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيْمٌ حَلِيْمٌ ﴾ . ومنها الإضرار بالرجعة في النكاح قال تعالى :(٢) ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَو سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ وقال سبحانه :(٣) ﴿ وَبُعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ في ذَلِكَ إِنْ أَرادوا إِصْلَاحاً ﴾ . فدلّ على أن من كان قصد بالرجعة المضارة فإنه أتم بذلك . ومعناه أن يطلق الرجل امرأته ثم يتركها حتى يقارب انقضاء عدتها ثم يراجعها ثم يطلقها وهكذا ليتركها كالمعلقة لا هي مطلقة ولا هي ممسكة ومنها الإضرار في الرضاع قال تعالى :(٤) ﴿ لا

(١) سورة النساء الآية « ١١ » .
(٢) سورة البقرة الآية « ٢٣١ » .
(٣) سورة البقرة الآية « ٢٢٨ » .
(٤) سورة البقرة الآية « ٢٣٣ » .

تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَولُودٌ له بِوَلَدِهِ ﴾ ومعناه أن يمنع الرجل أم الولد من إرضاعه ليحْزنها بذلك أو تطلب المطلقة إرضاع ولدها بأجر يثقل كاهل الأب لتضرر بذلك .

حقيقة التوكل في الإسلام

التوكل : يقين القلب بأن الأمور كلّها بيد الله وفي قبضته ، وأنه لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع غير الله ثم طمأنينة القلب وسكونه إلى وعد الله وضمانه ، حتى لا يضطرب ولا يتزلزل عند ورود الشدائد والفاقات . وحتى لا يفزع ولا يرجع في المهمات والملمات إلا إلى الله تعالى وإن رجع في شيء من ذلك إلى الخلق كان في الظاهر دون الباطن ويكون على موافقة الأمر الإلهي المشروع .

ولا شك أن التوكل على الله منزلة عظمى من منازل الدين ومقام كريم من مقامات الموفقين بل هو من أعلى درجات المقربين وهو معنى ينبني على اليقين والتوحيد الصحيح ، وعلى الإيمان بالقدرة وعلى الإيمان بالجود والحكمة الإلهية فأما اليقين والتوحيد الصحيح فيترجمه قول المؤمن : « لا إله إلّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ » .

وأما الإيمان بالقدرة فيترجمه قول المسلم : « لَهُ المُلْكُ » .

وأما الإيمان بالجود فيدل عليه قول المسلم : « وَلَهُ الحَمْدُ » .

فمن قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » مستشعراً ما فيها من هذه المعاني مدركاً حقيقتها تمام الإدراك تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل وصار معنى هذا القول لازماً لقلبه غالباً عليه .

وفضل التوكل عظيم كما جاء في الآيات الكريمة والسنة المطهرة قال الله تعالى :[1] ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَوكلِيْنَ ﴾ وقال تعالى :[2] ﴿ وَمَنْ يَتوكلْ على اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ فما أعظم هذا المقام وما أجل هذه المرتبة وأشرف هذه المنحة للمتوكل على الله فإنه ينال بذلك من المناقب التي دلت عليه الآيات .

الأولى: أن الله تعالى يحبه والمحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المتَوكلِيْنَ ﴾ .

الثانية : أن الله تعالى يضمنه بكفايته له ومن كان الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّهِ فَهُو حَسْبُه ﴾ .

الثالثة : أن الله تعالى يعزه ولا يذله بل لا يضيع من لاذ بجانبه ولا يذل من استجار به قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكّلْ على اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ .

(١) سورة الطلاق الآية « ٣ » .
(٢) سورة الأنفال الآية « ٤٩ » .

الرابعة : أن الله تعالى يتولى تدبيره وتسديده وتوفيقه وإرشاده بحكمته قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ .

فهذه أربع صفات جليلات عظيمات جعلها الله للمتوكل عليه دلت عليه الآيات القرآنية السابقة .

عن إبن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ﷺ ومعه الرُهَيّط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيْل لي : هذا موسى وقومه ولكن أنظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي أنظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله . وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه فقال : هم الذين لا يرقون ولا يسْترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة) . متفق عليه .

وقال ﷺ : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما

يرزق الطير تغدُو خماصاً وتروح بطاناً) رواه الترمذي والحاكم وصححاه .

وفي بعض الأخبار أوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليه السلام وقد رمي إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

ويخطىء كثير من الناس في فهم حقيقة التوكل فيظنون أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وتسليم النفس للأمراض والمتسلطين ولو بالوقوع في الهوان والذلة والضعف فيخرجون به عن حقيقته إلى الخمول والكسل والنوم والغفلة . وهذا ظن الجهال فإن ذلك خطأ في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين .

ذلك لأن التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده مع العلم بأن السبب لا بد منه ولكنه لا يفعل شيئاً إنما الفعل لله وحده لا شريك له فمن اعتمد على الأسباب فقد أشرك في التوحيد ومن تثاقل عنها فقد طعن في الدين والشرع وخالف الطبع وسنن الكون ومن جمع بين الأمرين : الأخذ في الأسباب من غير اعتماد عليها بل جعل اعتماده في تحقيق مطلوبه على الله وحده فذلك من المؤمنين حقاً الذين جمعوا مطالب الدين والدنيا ومنطق التوحيد والشرع والعقل .

وبعد فإن الإيمان الصادق يتطلب من المؤمنين التفويض الكامل إلى ربه في جميع أموره والإعتماد عليه مع التمسك بالأسباب والأخذ بالوسائل التي تجعل الحياة سعيدة والحضارة زاهرة والعمران بالغاً أشده ، هذه هي العقيدة الصحيحة التي يتطلبها الإسلام ويوصي بها الإيمان ويرشد إليها ديننا الحنيف .

وفي سيرة نبينا الكريم ﷺ وصحابته الأخيار رضي الله عنهم والسلف الصالح النماذج الحية التي تدل دلالة واضحة على أن هذا المعنى للتوكل هو الذي فهمه الصحابة الراشدون وأدركه السلف الصالحون فأفلحوا في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى التوكل الصحيح وأن يجنبنا التواكل والكسل والإهمال في العمل وأن يهدينا سواء السبيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مع المتوكلين

تقدم في الحديث السابق ذكر حقيقة التوكل في الإسلام وفضله ، وما جاء فيه من الكتاب والسنة مما يدل على الثواب العظيم الذي أعده الله تعالى للمتوكل عليه ، ولا شك أن هذا النوع من التوكل لا بد له من عزيمة صادقة ، وهمة عالية وعمل جدي وإرادة قوية .

والسبيل إلى هذه العزيمة والهمة يحتاج إلى ممارسة وتربية وتهذيب للنفس البشرية بتعويدها على حسن الاتباع ووجوب الاقتداء وأهمية التمسك بسنة النبي ﷺ في سائر الأحوال والأقوال . وبهذه التربية والتدريب ينبعث في النفس نور الإيمان وإشراقه . وإذا تم ذلك هان على النفس كل صعب وتيسر كل عسير وانقادت لداع الشرع ولو بإلقاء النفس إلى التهلكة وتجرع غصص البلى .

فإن قوة الإيمان تهزأ بالموت وعمق التوكل يسوق إلى كمال اليقين .

فهذا رسول الله ﷺ يقف أعرابي من قطاع الطريق بالسيف

على رأسه ويسأله من يمنعك مني ؟ من يحميك من سيفي ؟ فلا ينزعج ولا يضطرب بل يقول في ثبات ويقين الله . وينزعج الأعرابي من قوة الإيمان ويهتز من فرط الدهشة ، فيسقط السيف من يده فيتناوله الرسول ﷺ ويقول له : من يمنعك مني ، ويحْتار الأعرابي الكافر في الإجابة ، لأن قلبه خال ويقينه ضائع ، ولا يجد يداً من أن يستسمح رسول الله ﷺ ويستعطفه ، فيدعوه الرسول ﷺ إلى الإسلام ، ولكنه يعتذر ويعاهده على عدم الحرب والقتال ، وعلى حفظ الود والجميل ، فيعفو عنه رسول الله ﷺ ويعود إلى إخوانه من الكفار قطاع الطرق وعصبات الصحراء ، قائلاً لهم : جئتكم من عند خير الناس خَلقاً وخُلقاً ، ويحكي لهم ما جرى له وما عاهده عليه ، وهكذا يظهر ﷺ بهذا الموقف الإيماني الرائع شجاعة المؤمن وثبات المتوكل الحقيقي وعفو القادر الواثق وحكمة الحكيم المتمكن ﷺ .

يقول جابر رضي الله عنه كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينَا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافني ؟ قال لا فقال فمن يمنعك مني ؟ قال الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال من يمنعك مني ؟ فقال كن خير آخذ فقال ﷺ تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، قال لا ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس . رواه الإسماعيلي في صحيحه وأصله متفق عليه .

ولما أخبر ﷺ بجموع الأعداء الهائلة بعد ما أصابه هو والمسلمون بأحد ، لم يكن منه إلا التسليم لله والتوكل عليه وإعلان الرضا بما يحكم به بل لقد سرى إيمانه إلى من معه من المسلمين فسايروه في توكله وتابعوه في رضاه وهكذا يظهر التوكل الحقيقي للشدائد دليلاً على صدق الإيمان وخالص اليقين . وهذا إبراهيم عليه السلام يلقى في النار فلا يتوجه إلا إلى الله ولا يتضرع إلى سواه فيجعلها الله برداً وسلاماً عليه .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار) . [رواه البخاري] .

وهذا موقف من مواقف التوكل المشهورة التي سجلها تاريخ الإسلام بشرف وفخر في ذكرى السيرة الخالدة للهجرة النبوية الكريمة عندما دخل ﷺ الغار ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذ وجه أبو بكر نظراً لِرسول ﷺ إلى الخطر المحدق بهما بقوله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فطمأنه النبي ﷺ ، ووجه نظره إلى أن الله تعالى معهما بالرعاية والتأييد وإذا كان الله معهما فمن يقدر عليهما بقوله ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهُما ، متفق عليه ، وفي ذلك أنزل قوله تعالى :[1] ﴿ إلاّ تَنْصُرُوه فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الّذِيْنَ كَفَرُوا ثَاني اثْنَيْنِ إِذْ هُما في الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوهَا وَجَعَلَ كَلمَةَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا واللَّهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ .

(١) سورة التوبة الآية « ٤٠ » .

فانجاهما الله تعالى وأتم دينه ونصر عبده وأعز الإسلام والمسلمين ، وهكذا نرى أن التوكل يدفع الجبن والخوف ويبعث الثقة القوية بالله تعالى رغم عنف الأزمات والشدائد .

وكان علي رضي الله عنه يخرج بالليل إلى المسجد يصلي تطوعاً فجاء بعض إخوانه يحرسونه فلما فرغ من صلاته قال ما يحبسكم فقالوا نحرسك فقال أمِنْ أهل السماء تحرسونني أم من أهل الأرض ؟ قالوا بل من أهل الأرض قال لهم إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه ويكلانه حتى يجيء قدره فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره وإن عليّ من الله جُنة حصينة فإذا جاء أجلي كشف عني وأنه لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وفي سبيل تربية مادة التوكل على الله تعالى في النفس ينبغي للمؤمن أن يتوجه إلى الله تعالى داعياً وسائلاً منه سبحانه وتعالى أن يجعله من المتوكلين ، وأن يوفقه للأخذ بذلك يعينه عليه ويكتبه في المتوكلين .

ولذلك فإنه ﷺ علمنا جملة من الدعوات المباركات تجسد تلك المعاني وتصوغها في أجمل عبارة وأحسن أسلوب وهي تشتمل على التسليم لله في كل الأمور والإقبال بكل الفكر والهمة على جنابه وفيها منتهى الرضا وغاية العبودية بالإقرار بالألوهية والخروج عن الاعتراض على القدر والرجوع إليه في كل أمر .

فمن ذلك أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته (قال بسم الله توكلت على الله اللهم إني أعوذ بك أن أَضل أو أُضل أوأَزِلّ أو أُزل أو أَظْلم أو أُظلمَ أو أَجْهل أو يُجْهل عليّ) . رواه أبو داود والترمذي وصححه .

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ من قال يعني إذا خرج من بيته (بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان فيقول الشيطان لشيطان آخر كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي) . رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللّهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون) . متفق عليه .

وبغد فإن الإيمان الصادق يتطلب من المؤمن التفويض الكامل إلى ربه في جميع أموره والإعتماد عليه قولاً وعملاً مع التمسك والأخذ بالوسائل التي تجعل الحياة سعيدة والحضارة زاهرة والعمران بالغاً أشدّه . هذه هي العقيدة الصحيحة التي يتطلبها الإسلام وتوصي بها الشريعة الغراء ويرشد إليها ديننا الحنيف .

التحذير من التشاؤم

إن التشاؤم مرض قديم في البشر ابتلى به الإنسان سببه جهل الإنسان بحقائق الأشياء وحدود تأثيرها .

فمن الناس اليوم من يتشاءم ، من أيام معينة من الشهر أو من الأسبوع كما يوجد نوع من الناس يعتقد النحس وسوء الطالع في بعض الأهل أو الجيران أو الأجَراء والصناع لذلك نرى بعض المسافرين يحجم عن السفر في يوم معين اعتقاداً منه أن اليوم الفلاني أو الشهر الفلاني إذا عقد النكاح فيه فلا يجد الزوجان في ذلك الزواج السعادة والهناء وقد يصل الوهم واعتقاد الشؤم إلى الأمكنة والأراضي وغيرها فيقول أحدهم هذه دار منحوسة ما سكنها أحد ووجد خيراً في سكناها أو يقول هذا الأجير والصانع منذ قدومه، والمصائب تتابع والخسائر تزداد على صاحب عمله ومالك مصنعه أو يقول هذا المولود ما ولد إلا ومات فلان .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المرض القديم فقال :[1]

(١) سورة النمل الآية « ٤٥ » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحَاً أَنِ اعْبُدوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيْقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا اطيّرنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عَنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ تُفْتَنُونَ ﴾[1] فيحدثنا الله تعالى عن مجتمع من المجتمعات البشرية التي عاشت في فجر التاريخ يوم أن كانت الدنيا نابتة والعقل طفلاً والعلم ناشئاً وليداً لا يعرف مصادر الخير ولا منابع الشر ولا حقائق الأمور ولا يستطيع أن يربط بين الأسباب وظواهرها ولا بين الجواهر وأعراضها ولا بين السنن وقواها . ذلك المجتمع هو مجتمع ثمود وثمود أمة من الأمم التي طغت وبغت وفسدت واستبدت فاختار الله لهدايتهم رجلاً منهم هو أخوهم صالح فدعاهم أول ما دعاهم إلى عبادة الله فما كان جواب قومه إلا أن قالوا إنا متشائمون من قولك متطيرون من دينك فقال في صراحة ووضوح : ﴿ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وأخبرنا القرآن الكريم أيضاً أن هذا وقع من قوم موسى فقال :[2] ﴿ فَإِذَا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحقيقة أن النعم كانت كثيرة عليهم فلما جاءهم موسى وعاندوا وكفروا أراد الله أن يرشد عقولهم ويوقظ ضمائرهم فمنع عنهم المطر وخصوبة الأرض وسلط عليهم الآفات الزراعية وأنواع البلاء وحاق بهم العذاب فرجعوا على موسى وقومه باللوم والتأنيب

(١) سورة النمل الآية « ٤٧ » .
(٢) سورة الأعراف الآية « ١٣١ »

وقالوا لهم إنكم قوم مشؤمون فلولا أنتم ما أجدبت الأرض ولا بخلت السماء ولا نقصت الثمار ولا نزل بنا ذلك الضيق ولو تعقلوا قليلاً للاموا أنفسهم ولعابوا تصرفهم ، ولعلموا أن ذلك كله من الله ولكن القوم لا يعقلون ولا يعلمون .

وهذا الموضوع بذاته ظهر من جهلة العرب واليهود والمنافقين حين هاجر النبي ﷺ وكانت المدينة ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي الكريم ﷺ فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم الخير والرزق بعض الإمساك فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه وأنزل الله تعالى :[1] ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أي خصب وثمار ورخاء .

﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جدب وقحط وجفاف ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي من الخصب والقحط ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ القَومِ لَا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً ﴾ وهذا بالنسبة لمصدر التصرف الحقيقي لأن الله تعالى بيده وحده الخصب والجدب والعطاء والمنع ، وأما بالنسبة لمن كان السبب في هذه التصرفات والنتائج فقد وضح ذلك بقوله :[2] ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ فالتشاؤم والتطير ليس خاصاً بأمة دون أمة أو بأمة جاهلة في الوقت الذي تنجو منه الأمم المتعلمة الراقية . فها نحن في القرن العشرين

(١) سورة النساء الآية « ٧٨ » .

(٢) سورة النساء الآية « ٧٩ » .

نجد كثيراً من سكان أوروبا وأمريكا يتشاءمون ويعتقدون النحس في اليوم الثالث عشر .

من بعض شهور السنة إلى أشياء كثيرة يضحك منها العاقل المفكر والمؤمن المتبصر الذي يحمل رسالة الإسلام ويؤمن بها تمام الإيمان فإن الإسلام أقام العقل على قدميه ونادى القرآن في الناس أن العقل يزعم الحق وأن المنطق رائد البحث وأن العلم إمام الدين فلا كهانة ولا عرافة ولا عدوى ولا طيرة ولا سانح ولا بارح ولا هامة ولا صفر إنما هناك القضاء والقدر والأسباب والمسببات والسنن والقوانين وأن ذلك كله بيد الله إن شاء أمسكه وإن شاء أطلقه [(1)] ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيْبَنَا إِلّاَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُو مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾ .

وبعد فإن الإسلام لا يؤمن إلا بالرجولة الناضجة والإنسانية الكاملة والعزائم الصادقة والهمم الوثابة والعقول الزكية والقلوب الأبية فهو يكره الضعف حتى في الكبر ويذم الشكاية حتى في المرض ويحرم الجبن في الحرب وينهى عن الذل بالسؤال أنه يطارد الوهم ويريد من المسلم أن يكون راسخاً لا يؤمن إلا بالمنطق والدليل ولا يصدق إلا بالحجة .

إن الإسلام يحرم تحريماً قاطعاً اعتقاد النحس والشؤم في أي شيء من الأشياء لأن مبني الدين على الحقائق لا على الوهم والخيال وقال ﷺ (ليس منا من تطير) [الطبراني] أي تَشاءم أو

(١) سورة التوبة الآية « ٥١ » .

اعتقد النحس كما علمنا طريقة الخلاص من عقيدة التشاؤم والتطير بقوله : إذا عرض لأحدكم تشاؤم وتطير فليقل . (اللّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يصرف السيّئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك) . رواه أبو داود والبيهقي .

وهذا دواء فكريّ واعتقادي أما علاج التشاؤم بشكل عمليّ فهو أن نمضي إلى الأمام في كل عمل من غير تحوّل ولا تردد ، ومن غير وسوسة ولا تقهقر .

وفي الحديث (إذا تطيرت فامض) . رواه ابن عدي .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباع الكتاب وأن يلهمنا الحق والصواب في أقوالنا وأعمالنا .

حقيقة الرضا في مفهوم العارفين

الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا وهو من أشرف ثمرات المحبة والمعرفة وقد ذكر الله عز وجل الرضا في كتابه فقال :[1] ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[2] ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فذكر أن رضا الله عز وجل عن عباده أكبر وأقدم من رضاهم عنه .

والرضا أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل . مطمئناً بمر القضاء ، ومسروراً بذلك ناظراً إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط ، ولما كان الرضا بالقضاء من أشرف ثمرات المحبة والمعرفة وأجل مقامات السالكين ، كان من شأن المحب أن يرضى بفعل محبوبه حلوا كان أو مرًّا .

فعن أبي هند الداري في الحديث القدسي : (من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس ربًّا سواي) رواه الطبراني في

(١) سورة المائدة الآية « ١١٩ » .
(٢) سورة التوبة الآية « ٧٢ » .

الكبير وابن حبان في الضعفاء وإسناده ضعيف .

وفي الحديث : (طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به) رواه الترمذي .

فالواجب عليك أيها المؤمن أن تعلم وتعتقد أن الله تعالى هو الذي يهدي ويضل ويشقي ويسعد ويقرب ويبعد ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويضر وينفع ، فإذا علمت ذلك وآمنت به فالواجب عليك أن لا تعترض على الله في شيء من أفعاله لا ظاهراً ولا باطناً ولسان الإعتراض أن تقول : لم كان هذا ؟ ولأي شيء كان ؟ وهلا كان هذا كذا ؟ وبأي ذنب استحق فلان ما جرى عليه ؟ فليس أجهل ممن يعترض على الله في ملكه وينازعه في سلطانه وهو مع ذلك يعلم أنه تعالى هو المنفرد بالخلق والأمر والحكم والتدبير يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد [1] ﴿لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ بل من الواجب عليك أن تعتقد أن جميع أفعال الله وقعت على وجه لا أحكم منه ولا أفضل منه ولا أكمل .

وهذا حكم الرضا بأفعال الله على وجه الإجمال . وأما على سبيل التفصيل فإن الأمور التي تخصك على قسمين منها ما يلازمك كالصحة والغنى . وهذا القسم يكون السخط فيه بنظرك إلى من فضل عليك بتمام الصحة فيما يظهر لك ووفرة المال وعظيم القوة ثم تقيس ذلك عليك فترى أنك أقل منه في ذلك .

ويكون الرضا فيه أن ترضى بما قسم الله لك من حيث أنه له

(١) سورة الأنبياء الآية «٢٣» .

سبحانه أن يفعل في ملكه ما شاء ، أو من حيث أنه تعالى قد اختار لك ما هوَ الأصلح لك والأنسب لحالك وهذا أكمل .

القسم الثاني ما لا يلازمك كالمصائب والأمراض والفاقات ويكون السخط فيه بأن تتبرم بشيء من ذلك أو تجزع عنده ويكون الرضا فيه بالتسليم والتفويض فإن في التسليم سلامة العاقبة وفي التفويض فيض المنى .

ويخطىء بعض الناس في فهم حقيقة الرضا فيظن أن ما يجده من الطمأنينة عند ترك المأمورات وارتكاب المحظورات هو من الرضا وهذا فهم خاطىء سقيم يصدر عن نظر قصير وعقل ضعيف لأن فعل المعاصي وترك الطاعات ، مما يسخط الله تعالى فكيف يرضى هو بشيء لا يرضى الله به ، قال الله تعالى :[1] ﴿ إِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ .

وفي الحقيقة أن هذا المسكين إنما رضي عن نفسه فقط وظن أنه رضي عن ربه . والرضا عن الله وعن النفس يبعد أن يجتمعا في موطن واحد . وما أحسن ما قاله بعضهم : الرضا هو أن ترضى بما يفعل الله باطناً وتفعل ما يرضيه ظاهراً فإن أراد العبد أن يعرف ما عنده من الرضا فليلتمسه عند نزول المصائب وورود الفاقات واشتداد الأمراض فسوف يجده هناك أو يفقده . وسار على هذا المنهج المستقيم والمنوال الواضح السلف الصالح رضي الله عنهم فقد

(١) سورة الزمر الآية «٧» .

جاءت في أخبارهم جملة من الصور الصادقة التي تدل على ما كانوا عليه من تمام الرضا وكمال التسليم والتفويض .

فقد روي عن ابن مسعود لأَنْ أَلحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان : ليته لم يكن أو لشيء لم يكنه : ليته كان .

مكانة الصلاة في الدين

إعلم أن الصلاة عماد الدين : وأجل مباني الإسلام الخمس بعد الشهادتين ومحلها من الدين محل الرأس من الجسد ، فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له فكذلك لا دين لمن لا صلاة له ، كذلك ورد في الأخبار جعلنا الله وإياكم من المحافظين على الصلاة ، المقيمين لها ، الخاشعين فيها ، الدائمين عليها ، فبذلك أمر الله عباده المؤمنين في كتابه ، وبه وصفهم فقال عز من قائل :[1] ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا للَّهِ قَانِتِيْنَ ﴾ فالصلوات هي المكتوبات الخمس الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والصبح،فتلك هي الصلوات التي لا يسع أحداً من المسلمين ترك شيء منها في حال من الأحوال ما دام يعقل ، ولو بلغ به العجز والمرض إلى أقصى غاياته ، والصلاة الوسطى : هي العصر كما ورد به الحديث الصحيح خصها الله بالذكر لزيادة الفضل والشرف ، وذلك معروف ومشهور في الإسلام ، حتى بلغنا في سبب النزول

(١) سورة البقرة الآية « ٢٣٨ » .

الرخصة في صلاة الخوف أن المسلمين كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات ، فصلى بهم عليه الصلاة والسلام صلاة الظهر على الوجه المعهود ، وكان المشركون قريباً منهم يرونهم فلما فرغوا من صلاتهم قال بعض المشركين : لو أُغرتم عليهم وهم في صلاتهم لأصبتموهم ، فقال بقية المشركين : إن لهم بعد هذه الصلاة صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ـ يعنون العصر ـ فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف . فانظر كيف صار فضل هذه الصلاة ـ أعني العصر ـ معلوماً حتى للمشركين .

وقال تعالى :(١) ﴿ مُنِيْبِيْنَ إِلَيْهِ واتَّقُوهُ وَأَقِيْمُوا الصّلاَةَ ولا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ فالإنابة هي الرجوع إلى الله ، والتقوى هي الخشية من الله ، والإقامة للصلاة هي الإتيان بها على الوجه الذي أمر الله به .

وقال تعالى :(٢) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الّذِيْنَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَالّذِيْنَ هُمْ عَلى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وقال تعالى :(٣) ﴿ إلا المُصَلِّيْنَ الّذِيْنَ هُمْ عَلى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ فاستثناهم من نوع الإنسان المخلوق على الهلع والجزع عند مس الشر له ، والمنع عند مس الخير له ، كأنه سبحانه يقول : إن المصلين على الحقيقة ليسوا ممن يهلع ويجزع ويمنع . (قلت) لأن هذه الأوصاف من المنكر ، وقد قال

---

(١) سورة الروم الآية « ٣١ » .
(٢) سورة المؤمنون الآية « ١ ـ ٩ » .
(٣) سورة المعارج الآية « ٢٣ » .

تعالى :[1] ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فالمصلي المقيم للصلاة كما أمر الله ورسوله تنهاه صلاته عن فعل ما يكرهه الله منه مثل هذه الصفات المذكورة وغيرها من المكاره .

وقال عليه الصلاة والسلام : (صلوا كما رأيتموني أصلي) فالمصلي على الاتباع والاقتداء برسول الله ﷺ في صلاته على الوجه الذي نقلته علماء الأمة من السلف والخلف رضي الله عنهم ، هو المصلي المعدود عند الله من المقيمين للصلاة والمحافظين عليها .

للصلاة صور ظاهرة وحقيقة باطنة :

ثم إن للصلاة صورة ظاهرة وحقيقة باطنة لا كمال للصلاة ولا تمام لها إلا بإقامتهما جميعاً فأما صورتها الظاهرة ، فهي القيام ، والقراءة ، والركوع ، والسجود ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الظاهرة . وأما حقيقتها الباطنة ، فمثل الخشوع ، وحضور القلب وكمال الإخلاص ، والتدبر والتفهم لمعاني القراءة ، والتسبيح ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الباطنة .

فظاهر الصلاة : حفظ البدن والجوارح . وباطن الصلاة : حفظ القلب والسر وذلك محل نظر الحق من العبد ـ أعني قلبه وسره ـ

---

(١) سورة العنكبوت الآية « ٤٥ » .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : مثل الذي يقيم صورة الصلاة الظاهرة ويغفل عن حقيقتها الباطنة كمثل الذي يهدي لملك عظيم وصيفة ميتة لا روح فيها .

ومثل الذي يقصر في إقامة ظاهر الصلاة ، كمثل الذي يهدي إلى الملك وصيفة مقطوعة الأطراف ، مفقوءة العينين ، فهو والذي قبله متعرضان من الملك بهديتهما للعقاب والنكال ، لاستهانتهما بالحرمة ، واستخفافهما بحق الملك .

ثم قال : فأنت تهدي صلاتك إلى ربك ، فإياك أن تهديها بهذه الصفة فتستوجب العقوبة . انتهى بمعناه .

شؤم المعاصي

قال الله تعالى :[1] ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ .

وعن أبي ثعلبة الخشي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) .

قال محيي الدين النووي رحمه الله تعالى : وهذا حديث حسن صحيح رواه الدارقطني وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، واحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) رواه الترمذي .

---

(١) سورة الأنعام الآية « ١٢٠ » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (خصال خمس أعوذ بالله أن تدركوها : لم تظهر الفاحشة في قوم إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم) رواه ابن ماجه والبيهقي والبزار .

واعلم أن للمعاصي من الآثار القبيحة بمقدار ما للتقوى من الأوصاف الحسنة وبالجملة ، فكما أنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا وسببه التقوى فكذلك ليس في الدنيا والآخرة شر ولا بلاء ولا محنة إلا وسببه المعاصي ، فهي سبب كل فساد في البر والبحر ، ومن هلاك الأديان والأبدان ، والأمراض والأسقام ، وفساد الزروع والثمار ، والقحط والخوف ، والغرق في البحر ، وهلاك الأموال والأنفس وغير ذلك ، قال الله تعالى :(١) ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ في الْبَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدي النَّاس لِيُذِيْقَهُمْ بَعْضَ الَّذِيْ عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وهي سبب زوال النعم وحلول النقم ، والندم حيث لا ينفع الندم ، قال الله تعالى :(٢) ﴿ إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حتى يُغَيِّرُوا ما

(١) سورة الروم الآية « ٤١ » .
(٢) سورة الرعد الآية « ١١ » .

بِأَنْفُسِهِمْ وإذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ .

وهي سبب زوال الإيمان واللعنة وغضب الرحمن ، والذل والمسكنة والهوان قال الله تعالى :[1] ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ثم قال ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وهي سبب لعن أهل الكتاب وامتحانهم بما أخبر الله تعالى به عنهم مرة بالقتل والسبي وجور الملوك ، ويسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم . وأخرى بخراب الديار ونهب الأموال ، كما قال الله تعالى ·[2] ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لنا أُولي بَأْسٍ شَدِيْدٍ فَجَاسُوا خِلاَل الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ﴾ . وتارة بمسخهم قردة وخنازير ، كما قال الله تعالى :[3] ﴿ فَلَمَّا عَتَوا عَمَّا نُهوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ ﴾ . بل هي سبب هلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية لقوله تعالى :[4] ﴿ فكلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

ثم حذرنا الله أن يحل بنا ما حل بهم بقوله تعالى :[5] ﴿ أَلَمْ

---

(١) سورة البقرة الآية « ٦١ » .

(٢) سورة الإسراء الآية « ٥ » .

(٣) سورة الأعراف الآية « ١٦٦ » .

(٤) سورة العنكبوت الآية « ٤٠ » .

(٥) سورة الحديد الآية « ١٦ » .

يأنِ للّذِيْنَ آمنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيْرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ويقول تعالى :[1] ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ بِبَعِيْدٍ ﴾ وبقوله تعالى :[2] ﴿ فَلْيَحْذَرِ الّذِيْنَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيْبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيْبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ ﴾ . وبقوله تعالى :[3] ﴿ وَلَا تَطْغَوا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى . وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتَدى ﴾ .

عظمت مصيبة من عصى مولاه ... وخلا بذلك الذنب وهو يراه
كيف استقر قراره لما عصى ... أم كيف لا تجري دماً عيناه
يا مذنباً لم تجر منه دموعه ... أسفاً على ما كان من بلواه
إني أظنك مبتلى بقساوة ... يا من يقل دموعه وبكاه

(١) سورة هود الآية «٨٣» .
(٢) سورة النور الآية «٦٣» .
(٣) سورة طه الآية «٨١» .

مفهوم الشكر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قيام العبد بواجب الشكر على النعم من توفيق الله تعالى ونعمه التي تستحق الشكر لما في الشكر من الفضل العظيم ، والثواب الكبير . إذ قرن الله تعالى الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال :[1] ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فقال تعالى :[2] ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرونْ ﴾ وقال الله تعالى :[3] ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ وقال تعالى :[4] ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِيْنَ ﴾ وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين :[5] ﴿ لَأَقْعدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيْمَ ﴾ . قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين

(١) سورة العنكبوت الآية « ٤٥ » .
(٢) سورة البقرة الآية « ١٥٢ » .
(٣) سورة النساء الآية « ١٤٧ » .
(٤) سورة آل عمران الآية « ١٤٥ » .
(٥) سورة الأعراف الآية « ١٦ » .

في الخلق فقال :(١) ﴿ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ ﴾ .

وقد وعد الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال :(٢) ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ ﴾ . وأخبر الله تعالى أن الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى : (٣) ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ﴾ . وقال :(٤) ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ .

وقال النبي ﷺ : (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) رواه البخاري معلقاً .

وروي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقلت أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجيباً ؟ ثم ذكرت : أنه قام في ليلة يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت : يا رسول الله ، ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى عليّ :(٥) ﴿ إِنَّ في خَلْقِ السّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أخرجه ابن الشيخ ابن حبان .

---

(١) سورة الأعراف الآية « ١٧ » .
(٢) سورة إبراهيم الآية « ٧ » .
(٣) سورة الزمر الآية « ٧٤ » .
(٤) سورة يونس الآية « ١٠ » .
(٥) سورة البقرة الآية « ١٦٤ » .

وفي الحديث ينادي يوم القيامة : (ليقم الحمّادون ، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء ، فيدخلون الجنة ، قيل : ومن الحمّادون ؟ قال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال . رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب . ولا تتم حقيقة الشكر إلا بثلاثة أمور :

الأول : العلم ، الثاني : الحال ، الثالث : العمل .

فأما العلم : فهو معرفة النعمة من المنعم ولا تتحقق تلك المعرفة للعبد إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته .

وأما الحال فهو الشعور بالفرح بنعمة الله تعالى مع هيئة الخضوع والتواضع . وشرطه : أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . وأمارته : أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، ولذلك قال بعض السلف : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة .

وأما العمل : فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق بالقلب والجوارح واللسان . أما القلب : فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما اللسان : فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما الجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، ويخطىء كثير من الناس في فهم الشكر فيظنون أن الشكر على النعمة أن يقول بلسانه : الحمد لله الشكر لله ، وهذا شكر لفظي .

أما الشكر الحقيقي : فهو أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل . ويخطىء كثير من الناس أيضاً في فهم النعمة ، فيظنون أن كل لذة وسعادة عاجلة هي النعمة مطلقاً ، وهذا الفهم بقدر هذا المعنى فقط فهم خاطىء . فإن النعمة الحقيقية هي ملائم تحمد عاقبته .

ومن ثم قال العلماء : لا نعمة لله على كافر وإنما ملاذه استدراج وقد يطلق على هذه الملاذ العاجلة إسم النعمة .

وتختلف أفهام الناس في إدراك حقيقة الشكر والنعمة وتذوق معناهما بقدر استعداداتهم ومعرفتهم لذلك تختلف درجات الشكر فحيار العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عند الشكر شكر والإعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر وشكر الوسائط شكر ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) .

وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر .

وبعد فإن من شكر الله تعالى أيضاً أن يشكر الإنسان إخوانه الذين أقالوا عثرته وسدوا جوعته أو غذوا عقله بالعلم والعرفان أو زكوا نفسه بالرشاد والإيمان . قال رسول الله ﷺ : (يا عائشة أخبرني جبريل قال : إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة قال لعبد من عباده اصطنع معروفاً هل شكرته ؟ فيقول : أي رب علمت أن ذلك منك فشكرتك فيقول له : تشكرني إذ لم تشكر من أجريت ذلك

على يديه) ، رواه البيهقي وابن عساكر عن عائشة .

وما يندرج من الأعمال تحت إسم الشكر لا تنحصر آحادها ولا تنضبط أفرادها .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً للعمل بكتابه وسنة سيد أحبابه .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة